مدونة ابو عبدو
رواية
هَاتِف عمُومِي
عبّاد يحيى
الأهلية

هَاتِف
عمُومي

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

▼

هَاتف عمُوميْ / رواية

عبّاد يحيى / فلسطين

▼

الطبعة الأولى، 2015
حقوق الطبع محفوظة
▼

تصميم الغلاف: كريم آدم

▼

الصفّ الضوئيّ:
إيمان زكريّا خطّاب، عمّان، هاتف 95349156 7 00962

All rights reserved.*No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أيّ جزء منه، بأيّ شكل من الأشكال، إلا بإذن خطّيّ مسبق من الناشر.

الترقيم الدولي :ISBN 978-9957-39-083-9

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية :(2015/5/3416)

روايات

عبّاد يحيى

هاتف عمومي

1

لا يمكن لأيّ حظ تعسٍ أن يصلح لتفسير ما جرى مع عبّاس في ذلك المساء، ولا يمكن لأيّ لعنة سماوية أن تصيب بهذه الدقة لتضرب الموظف الملتزم الذي لم تشهد سجلات إدارة المصرف الوطنيّ أنه ارتكب أية مخالفة أو تقصير أو تهاون، حتى التزامه بمواعيد العمل ونوباته أضحى مثلا، فيصح أن يقال: يبدأ العمل في المصرف بعد نصف ساعة من دخول عبّاس من المدخل الرئيس، بدل أن يقال: يبدأ عمل المصرف في تمام الثامنة صباحا.

كأنّ أقدارا عجيبة تحالفت على الإطاحة بعبّاس منذ عقود مضت، وأزجتْ أيامها في التخطيط والترتيب، واختارت العشاء السنويّ للمصرف موعدا لتسديد ضربتها. وكان العشاء -لتكتمل خطة الأقدار- في هذا العام مختلفا، فهو ليس مجرد «العشاء السنوي» وحسب، بل يطابق الذكرى الخمسين لتأسيس المصرف الوطنيّ، الأهم في البلاد والإقليم؛ يومٌ نادر لا يتكرر إلا مرة كل نصف قرن.

كان العشاء فرصة انتظرتها الأقدار بصبر صياد عجوز. نقطة في جدار حياة عبّاس تصلح لمسمار كبير، بل وتد، خبأته الأقدار طويلا.

والقاعة الشاسعة حيث العشاء الكبير تبدو دون نهاية، كأنها خلاء مفتوح لا تحدّه إلا ممكنات الإبصار وقوة النظر. وجميع الحضور بألوانهم وأزيائهم وأشكالهم كأنهم يزيدونها اتساعا. والجميع تعني كل الموظفين في كل فروع المصرف في البلاد، وجميع المدراء الإقليميين حول العالم، وجميع المدراء في الإدارة المركزية العالمية ومجلس الإدارة. كل هؤلاء جلبوا عوائلهم معهم إلى الاحتفال الكبير. يضاف إليهم مئات المدعوين من البنوك الشقيقة والمتعاونة والمنافسة، وممثلون عن كل المؤسسات والشركات المالية.

فعليًّا، كل من يلمسون المال أو يتحكمون به قبل أن يمسك به الناس العاديون، كانوا هناك. ولم يغب عن الليلة الحافلة أيّ من الوزراء، حتى رئيس الوزراء كان حاضرا، وقيل إن الرئيس قد يباغت الجميع، ويحضر هذه المناسبة الوطنية الكبرى.

كل أولئك إلى جانب مشاهدي محطات التلفزة التي نقلت الحفل الكبير، كانوا الشهود المباشرين على ما حدث لعبّاس في تلك الليلة الفارقة.

كبسة زر، مجرد تحريكه لمسافة لا تتجاوز ربع سنتيمتر، هذه بلغة المسافة. أما بلغة الزمن فكانت تسع عشرة ثانية فقط. هذان الرقمان كانا كفيلين بتحويل حياة عبّاس إلى حياة أخرى.

كانت تلك الثواني كفيلة بجعل ذاك الرجل البسيط، بقميصيه الأبيض والبني، والذي لا يلحظه أحد وهو يراقب سلاسة انتظام صفوف عملاء المصرف ومراجعيه، ذاك الذي يلعب دورا هامشيا لا يذكر في ألعاب المصرف الكبرى، كانت تلك الثواني كفيلة بجعله

لاعبا وحيدا أمام جمهور يفوق في عدده كل الذين عرفهم في سنوات عمره المتعجّلة نحو الأربعين.

لاعب مغمور مطمور أمام جمهور مرعب نوعًا وكمًّا، وفي مساحة لا تزيد عن ربع سنتيمتر وفي غضون تسع عشرة ثانية، يُهزم الهزيمة الكبرى دون أن يدري، ويخسر كل شيء أو يكاد.

وحدها هيفاء كان بإمكانها فهم ماذا يمكن أن تفعل تسع عشرة ثانية وربع سنتيمتر في شخص كعبّاس. وحدها كانت الرابح في تلك الليلة العجيبة، ووحدها كانت تملك حبل نجاة يمكن أن ترمي به لعبّاس ليلتقطه فينقذ حياته في خريفها المبكّر.

2

لم يكن لهيفاء من اسمها أيّ نصيب، بل تصلح للدلالة على بطلان المقولة، وحده صوتها كان يليق باسمها وينسجم معه. ولذلك يمكن استخلاص قاعدة رياضية أوليّة ثابتة مفادها؛ كلّ من سمع صوتَ هيفاء ثم رآها تنتابه أعراض خيبة الأمل. ولذلك أيضا وظّفها مدير فرع المصرف الوطني في الحي القديم من مدينة رام الله، في قسم استعلامات الهاتف تحديدا.

ورغم أن هيفاء أدركت مقدار الانتهازية التي تحلى بها مديرها الأول عند التعيين، إلا أنها انقادت مستسلمة لدورها الذي ستتقنه بكفاءة. ولذلك يمكن القول إن هيفاء واقعية، وتتقن الخروج من نفسها ومراقبة مشهد اختبائها في غرفة أشبه بقمرة القيادة في قطار داخلي متهالك لتلقّي اتصالات عملاء المصرف، والقول لنفسها بوضوح؛ إن هذا كان خيارا صائبا.

وحدها تعكراتٌ صباحية كانت الشائبة الوحيدة ربما في علاقة هيفاء بالمصرف. كانت تلك التعكرات المزاجيّة تظهر مع بدء دخول موظفات المصرف القادمات من كليات الاقتصاد ودوائر المحاسبة

إلى مكاتبهن صباحا، وتتناسب طرديا مع مقدار اعتنائهن بمظهرهن. وقبل أيّ إيحاء مربك، لا بد من الإشارة إلى أن هيفاء تجاوزت تلك التعكرات سريعا. وتجاوزُ هيفاء لتعكراتها المضمرة ترافق مع تغيّر فادح في مسار حياتها، حدث منذ أشهر.

يمكن التأريخ للتغيّر الفارق في مسار هيفاء باللحظة التي أدرك فيها مدير إذاعة محليّة كان يتصل بالمصرف مستفسرا عن تأخّر حوالة يترقّبها، أن هيفاء موهوبة. بل أن هيفاء تملك صوتا نادرا لم يلج أذنيه شبيه له من قبل، وأنه سيفعل أي شيء للتعاقد معها للعمل في إذاعته المسموعة جيدا في محافظة رام الله والبيرة، وما حولها من بلدات ومدن.

وهذا، مع صحته، اجتزاء للحقيقة واختزال لها، أما حقيقة الحقيقة وتفاصيلها فيمكن القول إنها تكشّفت ضمن ثلاث مراحل.

الأولى، خلال المكالمة الهاتفية مع قسم استعلامات الهاتف في المصرف، حين بدأت المكالمة بعبارة هيفاء التقليدية: «هنا قسم استعلامات الهاتف في المصرف الوطنيّ فرع رام الله التحتا، وأنا هنا لمساعدتكم، أنا هيفاء».

والأمانة الموضوعية تقتضي القول إن هيفاء رغم تلقيها ما يزيد على مئتي اتصال يوميا، لم تفقد عبارتها الافتتاحية رونقها ورنينها الخاص. بل يمكن القول إن هيفاء وفي كل مرة تقول فيها عبارتها الثابتة تمنحها إيقاعا مغايرا مختلفا عن كل المرات السابقة.

ولو أن مهندس الصوت الذي بات يعمل معها في برنامجها الليليّ في الإذاعة، حصل على أرشيف اتصالاتها من المصرف،

واقتطع عبارتها الافتتاحية، ورتب كل العبارات على شريط المونتاج، وأفلت المؤشر ليقرأها؛ لتوفرت أمامه مقطوعة طويلة بديعة حافلة بالالتواءات والتعرجات الملحنة المرنمة، تصلح كإثبات علميّ على أن أبدع آلة موسيقية عرفتها البشرية هي الحنجرة.

و«هيفاء» حين نطقتها هيفاء، فعلت بمدير الإذاعة فعلها، نسي أمر الحوالة المتأخرة، ونسي أن زوجته تجلس إلى جانبه وتستمع للمكالمة، ونسي ازدحام دورته البرامجية، وأنه لا يملك دون مشورة مالكي الإذاعة أن يضيف إليها أي برنامج، وقال لهيفاء دون مقدمات: «أنا مدير الإذاعة الأولى، وأعرض عليك العمل معنا يا هيفاء».

أما المرحلة الثانية من تكشّف الحقيقة فترافقت مع ما جالَ في خيال مدير الإذاعة حين رفستْ زوجته الطاولة، وخرجت من الصالة نحو أيّ مكان آخر لا يعرض فيه زوجها العمل على النساء لمجرد أن صوتهن ذو إيقاع مختلف.

وللأمانة فصوت زوجة مدير الإذاعة عاديّ، بل هو الصوت العادي تحديدا، لا يرنّ ولا يطنّ، يرقّ في مواطن التفخيم، ويتفجّر في مواضع الرقة، وأسوأ ما فيه أنها لا تتقن تقطيع الكلام ولا ترنيمه ليناسب معنى ما تقول وتقصد، ومع كل هذا لا تتقن اختيار الوقفات المؤثرة.

وفي الحقيقة، ما كان لأيّ رجل أن يلحظ كل عيوب صوت زوجة مدير الإذاعة، إلا مدير الإذاعة المعروفة واسعة الانتشار، فهو يرى ويسمع ويشمّ الناس من أصواتهم. وزواجه بها كان ملفا متأخرا على مكتب القدر، أنجزه على عجل دون أي مراعاة أو عناية.

وما جالَ في خيال مدير الإذاعة هو أن هيفاء هيفاء، وهذا كان خطأ فادحا لا يليق بمدير إذاعة مثله، فهو بحكم الخبرة الممتدة لما يزيد على عشرين عاما يدرك أن احتمال انطباق الصوت الجميل على الجميلة، أقل بكثير من احتمال إجابة وزير متهم بالفساد على اتصال مكتب التحرير في صبيحة محاكمته. وفي الحقيقة فإن احتمال انطباق الصوت الجميل على الجميلة أقل من احتمال محاكمة وزير بقضية فساد أصلا.

إلا أن صوت هيفاء كان فريدا إلى حدّ أوهم مدير الإذاعة بأن الاحتمال الضئيل الذي لم يصادفه قط، قد تحقق، وهيفاء هيفاء. ومن فرط سحر صوتها نسي مدير الإذاعة عشرات المذيعات اللواتي فعل صوتهن بخياله الأفاعيل، ثم عبرت الحقيقة الأبواب تتدحرج بأكوام من الترهلات ومساحيق التجميل لتهرس خيالاته بل وتقلبها.

فمنذ أمد بات خيال مدير الإذاعة يفعل فعلا معكوسا، فيبدع في تخيل دمامة صاحبة الصوت الجميل، ووصل الأمر به حدا جعله يعتقد أن العلاقة بين الصوت الجميل والجمال الفيزيائي لصاحبته، هي علاقة عكسية. وعمليا كانت زوجته شاهدا حاضرا بقوة على صحة هذه العلاقة، بل هي شاهد متطرف على صحتها.

أما الجزء الثالث والمتمم لملابسات عمل هيفاء في الإذاعة، فمتصل بما كان ينقص الإذاعة، فهي تعاني شحا حادا في الدفء. كانت ساعات البث باردة تماما.

حين أتت هيفاء لمقابلة مدير الإذاعة في مكتبه، وبعد تجاوزه لخيبة الأمل ورضّة الحقيقة وصفعة المنطق وبصقات النسب المئوية

الضئيلة، كان واضحا أن لدى المدير فجوة واحدة في ساعات بث إذاعته، وكانت لدى هيفاء كل إمكانيات رتقها، ولم يبق إلا طرح العرض من جانبه والموافقة من جانبها.

قال بالحد الأدنى من الكلمات رغبة في حسم الأمر فورا ودفعها للخروج بسرعة ليتنفس؛ إنه يريد برنامجا يذاع عند انتصاف الليل، برنامجا لا نمطيا، مختلفا صريحا، يكسر الرتابة ويمزّق العادي.

كانت هيفاء ذكية، بل يمكن تفسير واقعيتها الجافة وإدراكها لما لديها على أنه ذكاء خاص، وكان لديها إلى جانب الذكاء الخاص ذاك؛ حدس مسبق جعلها تتنبأ بالقادم، فخبأت الكلمات تحت لسانها لتقذفها في أذني مدير الإذاعة في اللحظة المناسبة، فيوافق على ما تقول دون نقاش.

بدأت هيفاء بعرض تصورها للبرنامج الدافئ ذاك، وانسابت الكلمات تفتح لنفسها كل الطرق المستغلقة كورقات نقدية في يد عملاء المصرف.

في تلك اللحظات من شرح هيفاء أدرك مدير الإذاعة حقيقة صغيرة مهمة، وهي أن صوتها يبعث فيه رغبة بالإغماض وإطباق الجفنين، صوتها كان دعوة صريحة لإراحة العينين من وظيفتهما الأزلية، وإرخاء السمع وتسيّده.

لا يمكن إنكار أن دوافع إغلاق العينين أمام هيفاء وهي تتحدث، تتجاوز أثرَ صوتها، فما ستقع عليه العينان لا يبعث فيهما أي رغبة بمواصلة النظر أو التحديق. ولذلك كله أغمض عينيه واستمع لشرح هيفاء، ولم يفتحهما إلا حين نطقت باسم البرنامج.

وقفتْ قبل نطق الاسم وقفة صغيرة متأنية مشرعة على القادم، تمهّد له وتؤطر ترقبّه، ثم وقفت بعد الاسم وقفة بارعة مغلقة كاملة منحته زخما مهولا.

قالت:

«هاتف عموميّ»

3

أم عبّاس توفيتْ بين يدي أحد الجيران، لم يكن الأمر تقصيرا أو تهاونا من عبّاس، فهو لأمه كأنه أمها، ولكنه آلزهايمر، بل أبشع أنواعه، حين لا يتذكر الإنسان من الطريق إلا المشي.

وعبّاس حين شرح له الأطباء ما آلزهايمر، بكى. ثم بكى كثيرا وهو يبحث عن أمه في الأنحاء، وبكى أكثر وهو يراقب محاولاتها الهرب من البيت حين يغلقه عليها ويذهب للعمل.

فطرة عبّاس سوّلت له أن الحرية أهم من الطريق، وأن فقدانها أفدح من فقدان الطريق، فصار يطلب من الجيران مراقبة أمه وهي تجول في الجوار خلال ساعات عمله. وحين يعود في المساء يبحث عنها ليلتقطها من الشارع ويجلس عند قدميها. لم يكن يجد جنة هناك، بل خليطا واسعا من أتربة الدنيا وأوساخها، ينفقُ ساعتين في تنظيفه.

ولأن الرجل لا يعيش دون أم، صارت الوظيفة أم عبّاس، وظيفته مراقبا وضابطا لانتظام صفوف العملاء في المصرف. ولمن يعرفون عبّاسا فكون الوظيفة بمثابة أم ثانية أو بديلة أمر متوقع،

فعبّاس ابن الاعتياد، بل هو التجسيد الأمثل لفكرة أن الإنسان كائن اعتياديّ، يبحث عن مدار ليدور فيه حتى فنائه، يخاف التغيير ويعتاش على الألفة، ويحتاج حاجة ملحة لشيء ما، ثابت متكرر وبانتظام، ليتمسك به وينظم حياته حوله، بدل أن يتيه في الطرقات كما كانت تفعل أمه البيولوجية في سنتيها الأخيرتين. كان عبّاس بحاجة للوظيفة لتشغل فراغ والدته وهي بقية ما تبقى له من أهل.

ولكن لا يمكن إيلاء هذا العامل النفسيّ أو المعنويّ كل هذا الحجم ضمن محاولة لتفسير علاقة عبّاس بوظيفته، فهو دون مؤهل مهنيّ ولا جامعيّ ولا حتى مدرسيّ. وبشق الأنفس تعلم القراءة والكتابة كطالب في المراحل الإعدادية.

ووالد عبّاس لم يملك شيئا، هرب من القرية إلى المدينة فهربت منه المدينة، ولم يحظ منها إلا بما يزيد حاجته إليها. وانتهى به الحال عاملا بسيطا في مصلحة البلدية دون شغل محدد.

يعمل مع عمال النظافة يوما، ومع عمال شبكة الصرف الصحيّ في يوم آخر، وقد يقضي أسبوعا يرافق عمال البلدية في جولاتهم الخدمية في أحياء رام الله المتراصة دون شغل فعلي. كان من صنف تترك لهم المدينة مقاعد شاغرة على هوامشها ليعيشوا فيها ولا يعيشوها. والد عبّاس كان دليلا عابرا على أن المدينة المسرعة صوب حداثتها لن تقبل إلا ذوي المسميات الوظيفيّة الواضحة والمحددة بدقة.

ورث عبّاس عن والده كلّ شيء، وكلّ شيء لا تعني إلا الحظ الناقص، وعيش الكفاف، وبيتا صغيرا قديما، وأمًّا مريضة، وأختين

تزوجن في قرى بعيدة، وحاجة ملحّة إلى الوظيفة، وشعورا حادا بالنقص تجاه كل من يجلس خلف مكتب.

أما الوظيفة في المصرف فكانت من تدبير أمه التي اجتهدت وكدّت وهي تحاول بناء حياة اجتماعية في الحي القديم الذي سموه بعد حين رام الله التحتا، هناك حيث سكنت العائلة ككثيرين قدموا إلى رام الله منذ عقود.

وقوام الحياة الاجتماعية تلك، الأتراح والأفراح. لم تكن أم عبّاس تستسلم لأيّ حائل قد يمنعها من المشاركة بأي مناسبة تخص جيرانها في الحيّ. كان الحيّ قريتها داخل المدينة. ومع المواظبة على جدول اجتماعيات مزدحم يجمعها بمن يشبهنها، وما أكثرهن هناك، تشكلت شبكتها الاجتماعية البسيطة. وبالطبع لم تكن تلك الشبكة بكل تكاليفها، مجانية دون مقابل.

بمثابرة قرويّة بسيطة ظلت أم عبّاس مشغولة بالبحث عن «وظيفة» لابنها بعد أن سئم من الأعمال المتقطعة المنهكة كوالده. وفي مشهد يحدث عشرات المرات كل يوم، كانت أم عبّاس تسأل صاحباتها عن عمل مناسب لابنها باحثة عن أي مساعدة ممكنة حتى اهتدت إلى زوجة أحد مدراء المصرف السابقين. وبعد متابعة مستمرة لحركة الزوجة وحضور مكلف للمناسبات التي تحضرها، وعدة أطباق مأكولات شعبية تتقن أم عبّاس إعدادها وتقديمها بطريقة لائقة، فاتحت أم عبّاس زوجة المدير بالأمر، كان طلبا مغلفا برجاء، وعلى قسوة المشهد ووجعه بالنسبة لأم عبّاس، كان عابرا مألوفا بالنسبة لزوجة المدير.

ببساطة، وبعد عدة أيام وقف عبّاس في غرفة مدير المصرف صامتا ينتظر أن يجد له المدير «مكانا يقف فيه في المصرف»، أو بتعبير أقل توترا؛ «وظيفة».

لم يكن عبّاس ليتوانى في حفظ هدية الأقدار، أو تضييع جهد أمه التي انقطعت عن الحيّ وأهله في اللحظة التي اطمأنت فيها إلى استقرار عبّاس في عمله. وكانت كل صباح تتلو عليه عهود العمل الجاد والحرص على طلب الرزق وأهمية الالتزام والإخلاص. وتلاحظ في عينيه امتثالا لا تقاعس فيه. ذاك الامتثال كان أول الأمر لما تقوله أمه، ثم غدا امتثالا للوظيفة ومتطلباتها. وبدأت الأيام تتوالى عادية جدا وبدا عبّاس مثلها عاديا جدا. ولعل أهم ما كان يميّز عبّاسا ويمنح حالته فرادة خاصة، هي عاديته العجيبة.

4

الحلقة الأولى

استثمرت هيفاء حلقتها الأولى في تمهيد لبرنامجها وتعريف به، كان الكلام عاما والجمل مقطّعة بالموسيقى. والمجاملات المرسلة نحو المستمعات والمستمعين حميمة دون إفراط، تحضّهم على المشاركة وتعرّفهم بالبرنامج.

مقتطفات:

«لن نقول كلاما جديدا، بل سنقول ما نقوله دوما، ولكن على الهواء مباشرة، سنتوقف عن الهمس لساعة واحدة، ونقول ما لدينا بوضوح وعلى سمع الجميع.

سأستأذن منكن ومنكم أحبائي في تحريك حديثنا في الدقائق الأولى من كل حلقة، ثم سأسعد أيما سعادة باستقبال اتصالاتكم على الهواء مباشرة، أو رسائلكم تحت الهواء.

لا تتوقعوا مني إلا كلاما عاديا، أما أنتم فأعلم أن لديكم كلاما كثيرا غير عادي لتخبرونا به في ساعتنا الهادئة هذه.

وإن فكرت مستمعة أن تشارك بأي فكرة بعيدا عن موضوع الحلقة فسنستمع كلنا، لا قيود هنا ولا حدود، أنا أسمعكم وأحب ذلك. وإن فكر مستمع أن يقترح فكرة الحلقة القادمة فله ذلك وسأمتثل.

هذا ليس برنامجا كالبرامج التي تعرفونها، هو مختلف لأنكم ستكونون مختلفين هنا. سنقول ما لا نقوله عادة.

إن كان لي أن أخبركم بما أشعر الآن، فأنا ببساطة متلهفة لسماعكم والحديث معكم ... أنا هيفاء وأتكلم إليكم من «هاتف عمومي» وأرجوكم لا تتركوه يرن طويلا».

اتصالات:

استقبل مقسم الهاتف ما يزيد على 58 اتصالا من أرقام مختلفة، مع تكرار اتصال فاق 10 مرات من أرقام بعينها، إلا أن هيفاء كانت قد حسمت هذا الأمر مع مهندس الصوت، فلا اتصالات في الحلقة الأولى.

...

هكذا استغرقت هيفاء فاتحة حلقات برنامجها، اختبرت القلق في الدقائق الأولى، وقاومت ترددها وتقطّع أنفاسها الصاعدة من قعر رئتيها والشعور المخاتل باختفاء الأكسجين من الاستوديو، والانقباض الحاد في عضلات أصابع قدميها. ثم جسّت قدرتها على التناغم مع مهندس الصوت المتحكم بالاتصالات والبث وبترتيب قطع الموسيقى. وفحصت علاقتها مع الاستوديو بألوانه المكتومة وكرسيه الصغير. وخرجت بخلاصات وقرارات للحلقة القادمة.

الأهم من كل هذا أن هيفاء أرادت تحقيق هدف رئيس من حلقتها الأولى، وهو بوضوح إخبار الناس أن حياة جديدة ستدبُّ في ليلهم الإذاعيّ.

كانت الحلقة الأولى ترويجية باختصار، لم يكن المهم ما قالته هيفاء فيها، المهم أنها قالت، وأن صوتها عبر الطرقات والسيارات الخاصة وسيارات الأجرة والحافلات وشاحنات النقل الثقيل، وسماعات الأذن ومذياع المطبخ، ووسائد المراهقات وأرصفة المتسكعين، وورشات البناء ومطابخ مطاعم آخر الليل، وغرف حراس البنايات الجديدة، ودوريات الشرطة ومنامات عناصر الأمن، وزنازين المسجونين، وآذان صبيان المقاهي.

سمعت المدينة كلها، سمع مدير الإذاعة ومدير المصرف وزملاؤها وزميلاتها، وسمعت مذيعة برنامج الصباح، وسمع العاملون في إذاعات المدينة ومالكوها، وسمع المهتمون وغير المهتمين. وعبرت رام الله موجة رسائل مختصرة تشبه عودة التيار الكهربائي بعد انقطاعه، عنوانها: «اسمعوا الإذاعة الأولى!»

5

حين سأل مالكو الإذاعة مديرها إن كان لدى هيفاء تصور واضح عما ستقدمه على الهواء مباشرة، خاصة أنها لا تملك أيّ خبرة سابقة في المجال، ولم تتحصل على تعليم جامعيّ، ولا أي نوع من المهارات الواضحة التي تجعلها قادرة على امتلاك زمام الإذاعة الأولى ساعة كاملة وحيدة منفردة، حينها صمت المدير وأجّل رده عليهم مدركا أن تأليب المالكين وأعضاء مجلس الإدارة وبث الشك فيهم تقف خلفه مذيعة أخرى. واستعاض عن المواجهة المباشرة التي كانت ستفصح عن كل تبرمه من تدخلهم في أدواره، بكتابة رسالة أرسلها عبر البريد الإلكتروني لمالكي الإذاعة وأعضاء مجلس إدارتها، وأراد منها الرد على الجميع وتحديدا تلك المذيعة المرتعدة من منافسة أي أنثى أخرى لها على عرش الإذاعة.

وكان هذا نص الرسالة:

«السادة أعضاء مجلس إدارة الإذاعة الأولى والمساهمون فيها،

تحية طيبة وبعد؛

وصلني عبر اتصالات هاتفية ولقاءات شخصية ما يفيد بتبرم حضراتكم من قراري اعتماد برنامج «هاتف عمومي» عند الساعة 00:00 جمعة/سبت. وعبَّر من تواصلوا منكم معي عن قلقهم بشأن كفاءة المذيعة الجديدة هيفاء، والإضافة التي سيقدمها برنامجها، ولذلك أقول وبوضوح،

دعكم من هذا الكلام الكبير الذي يظهر أنكم معنيون فعلا ومهتمون بما يقال على الهواء، أنتم وأنا نعلم جيدا ماذا تريدون من الإذاعة وبرامجها، وأعلم جيدا أي مؤشرات ترصدون وتترقبون بعيدا عن الكفاءة والمهنية والمعايير الإعلامية التي أضمنها أنا منذ عشرين عاما.

ما ألتزم به أمامكم بسيط وواضح، تلك الساعة الميتة من البث ستبعث من جديد.

والأهم أن تسمعوا هيفاء وبرنامجها قبل أي احتجاج واعتراض! واسمحوا لي أن انتهز هذه الفرصة النادرة من تدخّلكم في شأن غير الإيرادات والنفقات، لأسألكم عن رأيكم في مذيعة الصباح التي أطالب بإنهاء عملها منذ سنة ونصف، فما دمتم حريصين إلى هذا الحد على السمعة المهنية للإذاعة وجودة ما نقدمه عبر أثيرها، فأولى بكم الانتباه إلى تلك التي تهبط بنسب المتابعة والاستماع إلى مستويات غير مسبوقة وتصر على التعامل مع الإذاعة كأنها ملكيتها الخاصة.

مع التحية».

بعد هذه الرسالة الفاصلة التي أرسل مدير الإذاعة نسخة منها لهيفاء، أنجز كل ما يتعلق ببرنامجها على عجل ودون معوقات. ستدفع الإذاعة لهيفاء مبلغا ماليا جيدا بالقياس إلى ما يتقاضاه من ستصبح زميلتهم في الإذاعة.

ولكن الراتب الجديد لن يكفيها عناء العمل في المصرف، فهي بحاجة لمال إضافي يسهل حياتها ويعوّض فقدانها مقومات المرأة المرحب بها دوما.

واقعية هيفاء هي من وافقت على المقابل الماديّ لبرنامجها، وهي أيضا من جعلتها تؤكد أن صوتها لا يمكن للإذاعة احتكاره، فهي موظفة في المصرف وصوتها رأسمالها هناك، ولا يمكن لها أن تفرط بوظيفة المصرف المستقرة الثابتة.

من اللحظة الأولى من لقائها بمدير الإذاعة حسم وضوح هيفاء ومنطقها العمليّ كل شيء سريعا. حتى اسم برنامجها لم تكلف هيفاء نفسها عناء شرح مبررات اختياره، واكتفت بالإصرار عليه. وظلّت تعيد نطقه على مسمع المدير بطرق عدة وتنغيمات مختلفة حتى اقتنع تماما، كانت طريقتها في نطق اسم برنامجها ستضمن موافقته بصرف النظر عن الاسم ودلالاته.

وفي الحقيقة لا يمكن القول إن هيفاء بحثت طويلا عن الاسم، وكان لديها تفسير واضح لدلالاته. بل، وعلى الأغلب، فكرت بالاسم في اللحظات الأخيرة من مقابلتها لمدير الإذاعة. وفوجئت كثيرا بعد ثلاث حلقات من برنامجها أن أحد أبرز النقاد الصحفيين

قد كتب مقالة طويلة حول برنامجها واسمه، ونشرها في إحدى الصحف اليومية الرائجة.

واحتفاء بالمقالة وفرحا بها قرأتها هيفاء في بداية الحلقة الرابعة عند انتصاف الليل وبدء يوم جديد.

لا يمكن لأي كان تخيّل السعادة التي قرأت بها هيفاء المقالة في مستهل برنامجها. وهيفاء وصوتها ضمنا للمقالة انتشارا عجيبا، وبات كثيرون يتماحكون في أيهم قرأها وأيهم سمعها وهي تقرأها. ربما كانت تلك أسعد لحظات حياتها.

في الحقيقة لم تكن تلك أسعد لحظات حياة هيفاء، ربما كانت الثانية أو الثالثة، أما الأولى فكانت بعد حلقتها الثامنة والثلاثين.

6

الحلقة الرابعة

«رنين هاتف عمومي!»

في العادة ينتصف عليّ الليل وأنا أكتب أو أقرأ، فالليل سكينة تسمح بإطلاق الخيال حرا من الشوائب والأكدار، ولكن مزاجي في نهاية يوم الجمعة البليد كان نكدا، فأدرت قرص المذياع لأستمع لأي لحن متأخر، فإذا بي أنصت لبرنامج سلب لبّي وسرق حواسي كلها، وانقدت راضيا للاستماع لكلام بأعذب صوت خامر أذنيّ تحمله الموجات الصوتية، وصرت وكلي ذهول أتساءل كيف يقوى الأثير على حمل صوت كهذا، ألا ينهكه فرط الجمال والسحر؟!

وقبل أن أرتخي في مقعدي مسلما نفسي لصاحبة البرنامج وصوتها الآتي من جنات الغواية؛ أذهلني اسم البرنامج: «هاتف عمومي»، من أين أتت صاحبة البرنامج باسم كهذا؟ من أي كأس رشفت خلاصات الإبداع وحسن الاختيار؟!

«هاتف عمومي» لفظ مألوف، دلالته الحسيّة نعرفها جميعا ولمسناها واستعملناها لسنوات، ولكن فيض الدلالات المعنوية كان

كموج عات يضرب مركب أفكاري المتهالك. كم جالت في خاطري أفكار وسبحت في ماء رأسي افتراضات ومجازات ومقاربات، ومعها كان سؤال عريض عن هذه الـ«هيفاء» التي استحلّتْ ساعتي الأثيرة عند انتصاف الليل، ونصّبت نفسها سيدة أول دقائق سبتنا؟ من تعيد إلينا ما نعرفه في طور مختلف وسياق مغاير وبدلالات أرحب.

هاتف عمومي، مع كل مرة نطقت هيفاء بهاتين المفردتين، ومض فيّ حنين إلى ماض قريب سحقته الهواتف المحمولة والذكية والبريد الإلكتروني وبرامج الدردشات والمحادثات. لعبت هيفاء بي، بل بنا، وزرعت حنينا في موضع ظنناه خواء فارغا جافا.

لا يزال الهاتف العموميّ موجودا، عند كل ناصية وطريق، جاثما يراقب عبورنا المتخفف حوله، ويشهد على نسياننا. حاضر ولكنه حزين متروك غير ملاحظ ولا مرئي، من ذا الذي يتنبّه اليوم لهاتف عمومي! هنا يتبدّى أول عناصر روعة اختيار اسم البرنامج الرائق الشفيف، تحديدا في الانتباهة وسط الغفلة والتذكر وسط النسيان.

تخيّلته أول الأمر هاتفا عموميا هاربا من فيلم سينمائي قديم في شوارع لندن أو نيويورك، هاتف داخل حجرة حمراء في شارع مزدحم، مزيج من الخاص والعام، مساحة متباينة بينهما، تدخل الحجرة فلا يسمعك أحد وتنأى بنفسك عن الجميع، ولكنهم حولك يرون انفعالاتك كلها، يرون فرحك بالصوت القادم من جهة الهاتف الأخرى، ويرون دموعك وتعكر ملامح وجهك الهادئ. أنت في الداخل وفي الخارج في الوقت نفسه، هناك وهنا. خاص وعام، ومزيج مفارقات، أن تعثر على الثمين الباقي وسط

المتحرك العابر، أن تجد السكينة والدفء في شارع عام مزدحم، كل ذلك مختزل في هاتف هيفاء، أو هكذا بدا لي وأنا أرفع صوت المذياع وأدور في غرفتي وسط الليل جذلا.

حين كانت الساعة الأولى تحزم آخر دقائقها وتمضي، وهيفاء تقول قطعتها الأخيرة وتعلق قلوبنا بها حتى الأسبوع المقبل، تمنيت أن أخرج بملابس النوم حاملا قلبي بيدي، وأمضى نحو كل هاتف عمومي في المدينة، أحضنه وأتصل منه بمن أحبهم، من تأخرت كثيرا في السؤال عن أحوالهم، سأتصل بأبي في العالم الآخر، وأمي التي تنتظر اللحاق به، سأتصل بصاحب البقالة التي سرقتُها طفلا حتى كبرت، سأتصل بكل النادلات اللواتي واربن لي نوافذهن المزدانة وأعرضت، سأتصل بحب لم يكتمل وحب اكتمل أكثر مما ينبغي، سأتصل على الأصدقاء المهاجرين وحبيباتهم اللواتي ينتظرن. سأتمهل في الخطو حين أمر بأي هاتف عمومي وأفكر بكل ما قيل فيه وما حمل، وسأنسج الحكايات.

سأعانق سماعة كل هاتف عمومي وأعتذر له، وسأنتظر أسبوعا كاملا حتى انتصاف الليل ومن أجمل هاتف عمومي سأتصل بهيفاء وأقول لها كلاما جميلا كرسائل الحب في حقائب طالبات المدارس».

صمتتْ هيفاء لدقيقة أو أكثر بمجرد إنهائها قراءة المقالة. ثم شكرت الناقد المعروف بلطف وخجل موارب. لم تقل في تلك الحلقة شيئا، بل أشرعت سماعة هاتفها العموميّ لكل الاتصالات القادمة.

اتصالات:

كأن هيفاء أرادت أن تجعل الحلقة تعميدا لها ولصوتها، وأراقت في سبيل ذلك دقائق الحلقة كاملة دون أن تقول شيئا. تركت المتصلات والمتصلين ليقولوا. بلغ مدح صوتها والتغني به مبالغ غير متوقعة. ادعى متصل أن صوتها طرد مرضه المتشبث به منذ أسبوعين. قالت متصلة إنها شعرت بهيفاء صديقة وأختا وصندوق أسرار بمجرد سماع دقيقة من حديثها. مازحها متصل آخر متسائلا إن كان الصوت بشريّا، واستفسر عن التقنية الحديثة التي يمكن أن تجعل صوتها بهذا الجمال. اتصل عجوز ليسألها أين كانت طوال سنوات حياته ولماذا ظهر صوتها متأخرا، وشتم بلطف نشرات الأخبار وأصوات مذيعيها المتخشّبين. ارتجل مغن شعبي معروف أبيات شعر غزلية مباشرة بعد أن عرّف بنفسه. أقسم شاب منفعل أنه مستعد لفعل أي شيء إن خصّته وحده بجملة عابرة.

مع حلقتها الرابعة بدا واضحا أن أهمية ما تقوله هيفاء وأثره وقيمته لم يكن متصلا تماما بما تقوله، بل بصوتها، صوتها تحديدا، كل هذه الجلبة والإعجاب المتضخم بسرعة هائلة كان لصوتها وبسببه. كانوا يسمعون صوتها قبل استماعهم لما تقول. هذه الحقيقة الموضوعية عبرت الحلقة والاتصالات ممزوجة بانفعال عاطفي بالغ.

ولولا التنوع الهائل في المتصلين في تلك الحلقة لاتّهم المغرضون والمغرضات هيفاء بأنها دبرت هذا الاحتفاء غير المسبوق. وتدبير اتصالات زائفة حيلة رائجة في عالم الإذاعات، هذا ما يدركه جمهور الإذاعة المتحفّز ومذيعاتها ومذيعوها البائسون، وما ستدركه هيفاء جيدا.

7

تبدو أوصاف من قبيل قبيحة وبشعة ودميمة غير كافية إن أطلقت على محور الحديث كله هنا، أي هيفاء. قد تصلح في سياق حديث عابر عن أيّ امرأة تعبر الأحداث سريعا ولا تشغل من الحيز أكثر من ثوان قليلة.

إلا أن إلصاق هذه الصفات بهيفاء، وهي من هي، دون تدقيق، غير مقبول. ولذلك لا بد من الإسهاب قليلا في توضيح هيئة هيفاء ومظهرها، وفك ألغاز الصفات العامة العشوائية التي وصفتْ بها، مع التأكيد على أن عدم كفاية الصفات تلك لتوصيف هيفاء، لا يعني أنها خاطئة أو قيلت جزافا.

والحقيقة أن تلك الصفات مريحة، وتوفر عناء البحث عن كلمات تناسب ملامح هيفاء وتنطبق عليها، وتوفر مع ذلك أيضا الجهد المتعب في البحث عن مقاربات ستظل عاجزة عن الإتيان بتحديد أمين لمظهر هيفاء وشكلها.

وبالتالي فإن ما يمكن قوله هو أن هيفاء تمتاز بحال عصيّة على التحديد والوصف البليد السهل المتراخي، وإن هيأتها خاصة إلى حد

يجعل وصفها مربكا. والحقيقة أن كل الهيئات خاصة بهذا المعنى وليست هيفاء استثناء، ولكن وتجنبا لمزيد من الإرباك لا بد من قول شيء في وصف هيئة هيفاء ومظهرها.

لعل رؤية هيفاء تحيل إلى ظرف قديم، قديم أي أنه متصل بلحظة خلقها وتشكيلها الأولى، كأن جبلة الطين التي خلقت منها هيفاء كانت تعاني نقصا في الماء.

نقص ماء أحال المزيج إلى شيء بين التراب والطين، ليس ترابا ولا طينا، بل هو شيء بينهما، طين ناقص، جاف وفيه تراب كثير. ولذلك لا يجد الناظر في وجه هيفاء أي شيء يشدّه أو يستفّز ماء طينه، بل على العكس، يجد كل ما يدعوه إلى النظر بعيدا. والأهم أن وجهها مع نقص الماء ذاك كان يضيف على عمرها الفعليّ عشر سنين على الأقل، وتتكفل ضخامة بدنها وثنياتها المترهلة المعلّقة عليه، بإضافة خمس سنوات أخرى، على الأقل أيضا.

وحتى لا يهيمن إغراء الوصف ومتعة توليف المقاربات على جهد توصيف مظهر هيفاء وتشكيلها الخارجيّ، وحتى لا تتسلل المبالغة فتفرض نفسها على المسعى الجاد للتوصيف، يكفي القول إن هيفاء تشبه صنفا محددا من النساء، ذاك الصنف الذي يعبر في الأنحاء دون إثارة أي ضجة، يمر كأنه لم يمرّ، لا تلتقطه أعين الرجال الراغبة، ولا أعين النساء الحاسدة المجبولة على الغيرة، ولا تلك العين المنسحبة بفطرتها خلف أي جميل. صنف لا تكترث به أو له الأبصار بل تسقطه، إلا تلك الباحثة عن خطأ ما، عن ثلمة شوهاء في صفحة الحياة.

وهيفاء، بخلاف النساء في حالتها، كانت تدرك جيدا ما أخذ منها صاحب الطين وما أعطاها، وبدل أن تمضي في الندب والتحسّر والتفجّع، شكّلت حياتها بما يناسب حالتها، ببرود نجار يصنع تابوتا، بل -ولتجنّب الإيحاء الأسود العميق- ببرود نجار يصنع سريرا واسعا ومتينا يليق بضخامة جسد هيفاء ويحتمل ثقلها.

8

الألفة قاتلة، ومن يألف شيئا لسنوات طوال كما ألف عبّاس الوظيفة لن يقوى على تصور حياته، ولا العيش، من دونه، وفي الغالب سيحبّه. حتى الشر المطلق والألم المطبق يمكن أن تحوّلهما الألفة إلى مرغوب باعث على السكينة. ومع صحة هذه الفرضية، كان عبّاس يمتلك قابلية خاصة في شخصه وتكوينه النفسيّ تجلعه يَألف سريعا، ويخاف حدّ الفَرَق أي غريب جديد مستحدث. وداء الألفة ذاك هو ما جعل برنامجه اليوميّ غاية في الانضباط والرتابة، وبات مساره اليوميّ ثابتا كثبات السنوات المالية وانتظامها.

ولأن الألفة والاعتياد تكالبا على عبّاس، ولأنه دون أهل بعد أمه ودون أصدقاء -أصدقاء حقيقيين ليسوا مجرد طارحي سلام وتحية-، كان يكره العطل والأعياد. كانت أياما تصبح فيها الدنيا سوداء فلا يعرفها كأنها غريبة عنه تماما. أي يوم يخلّ بسير الأيام كما ألفها عبّاس يصبح مكروها بغيضا.

لذلك استجدى عبّاس المدراء المتعاقبين على إدارة المصرف ليسمحوا له بالعمل أيام العطل الأسبوعية والأعياد والمناسبات

الدينية والوطنية. ومن ساير عبّاسا وجاراه من المدراء وأكمل الحديث متسائلا عن نوع العمل الذي يريده عبّاس في العطلات والمصرف كله مغلق، لم يجد إجابة واضحة، بل عبارات من قبيل «أي شيء.. أي شيء».

في حالات نادرة كان أحد المدراء يطلب منه القدوم إلى منزله لمعاونته في أعمال خاصة ويدفع له لقاء ذلك، وفي الغالب كانت تلك الأعمال تندرج في خانة البستنة وصيانة المنزل الواسع وملحقاته. أيامها وجد عبّاس متعة غامرة في طلاء الجدران، بل يمكن القول إن عبّاسا اكتشف في تلك الأيام أن طلاء الجدران هواية تنسيه الدنيا، ولذلك وفي أيام العطل الكثيرة كان يطلي جدران منزله الصغير، يطليها أسبوعيا بألوان مختلفة، فيصرف ساعات نهاره كاملة في طلاء حائط. كانت تلك هواية وعادة سريّة لا يدري بها أحد، ولو أن بائع الطلاء يعرف عبّاسا لأدرك أن في الأمر خطبا ما، إلا أنه ظنّه يمتهن الطلاء وحسب.

والحقيقة أن عبّاسا ألف رائحة الطلاء وأدمنها دون أن يعلم، وما كان أولَ الأمر مجردَ هواية جديدة ممتعة، أصبح مع الزمن قدرا، وكبّلت الألفة عبّاسا بقيد جديد، مدعّم بحاجة خلاياه لتلك المركبات التي تحويها رائحة الطلاء ومذيباته. ولولا أن بيت عبّاس يمتاز بتهوية جيدة، فهو أشبه بجزيرة تحيط بها ثلاثة شوارع، لكان الرجل طريح فراش أبيض في مستشفى ما، وعلى الأغلب لن تأتي أختاه البعيدتان لعيادته، ولن ينتبه أحد في المصرف لغيابه، وإن انتبهوا سيبتسمون لأن شيئا ما طرأ على حياة عبّاس الرتيبة.

وبما أن مجرى أيام عطل عبّاس بات واضحا، لا بد من إجلاء مجرى أيام عمله، وتلك تبدأ عند السادسة، حين يستيقظ دون منبه فيعدّ فطوره المختصر، ويلبس أحد قميصيه وبنطالا من الكتّان، أبيضَ تقريبا، وفي أيام البرد يضيف سترة كحلية.

يخرج من البيت القريب من البلدية مراقبا بدء وصول الطلاب الصغار إلى مدرسة الفرندز المعروفة، ويقطع الشارع المحاط بالبيوت القديمة سيرا على قدميه صوب مبنى المصرف.

وبعد انتهاء ساعات عمله يقطع خمسة مترات متراخيا صوب المقهى الصغير الجاثم منذ سنين مقابل مدخل المصرف. هناك يجلس عباس مع عجائز المدينة العائدين للموت في أرض الوطن، بعد إتلاف شبابهم في الأمريكيتين. ينصت دون تفاعل واضح إلى أحاديثهم عن شبابهم الغابر قبل سفرهم خارج رام الله، يتحدثون عن المدينة حين لم تكن مدينة، ويستذكرون مرّاتهم الأولى في كل شيء.

كانت تلك الأحاديث اليومية الرتيبة تضفي تشويقا على أيام عبّاس ومساءاته، إلا أنها مع مرور الوقت غارت في داخله حتى غدا أحد أولئك العجائز بطريقة أو بأخرى. أصبح يشعر أنه منهم، وحين يعبر طرقات المدينة يشعر أنه لا ينتمي إلى نسختها الحالية، بل إلى تلك التي تتحدث عنها صحبة المقهى. وهذا ربما سبب آخر دفع عبّاسا لمواجهة حياته الراهنة ببرود مضاعف.

ومع إضاءة البلدية لإنارة الشوارع قبيل مغيب الشمس، يمضي عبّاس نحو البيت، ويكاد يدوس على خطاه الصباحية نفسها، كأنه

يصرّ على محوها وصولا إلى تلك الخطوة الأخيرة/ الأولى عند عتبة باب بيته، يمحوها ويدخل موصدا الباب ويومه معًا.

في الطريق صباحا ومساء يلقي التحية على كل من يصادفهم في مشهد أزليّ لا يتغيّر، البقال والخياط وبائع الحمص والفول والفلافل والخباز وبائع الخضروات والفاكهة وعامل محطة الوقود ورجال الدين مسيحيين ومسلمين وصاحب محل الشواء وأولاد صاحب الحانة الكسولين، وبعض رجال الشرطة، وصبيان محل الحلويات.

ومن يفوّت عبّاس تحيته صباحا يصادفه في المساء، ولا يطرأ جديد على قائمة تحياته إلا حين يباع محل في الطريق أو يؤجّر إلى صاحب مصلحة جديد، يطرح عبّاس السلام دون أي رغبة في التعرف أو في التثبت من هوية القادم الجديد، خاصة بعد تكاثر القادمين الجدد وتغير الكثير على جانبي الطريق.

كل شيء في حياة عبّاس كان يبدأ لتحقيق غاية محددة، ثم يغدو الشيء بحد ذاته هو الغاية. والوظيفة أول تلك الأشياء، أمه الثانية التي يرعاها دون أمل برد دين أو جميل، ودون تفكير بالتناسب بين تفانيه وإخلاصه، وقيمة راتبه البسيط في عرف المدينة المغالية في غلائها. ولكن الراتب بالنسبة لعبّاس وحياته، كثير ويفيض عن الحاجة، ويسمح تراكمه في حسابه المصرفيّ بشراء كل الطلاء الموجود في مخازن المدينة.

9

ضحايا هيفاء

قبل الخوض في الحديث عنهم، لا بد من التفكير لوهلة، هل هيفاء كما وردت في كل ما سبق يمكن أن يكون لها ضحايا؟

يمكن اللعب على دلالات كلمة ضحايا واستخدامها استعاريا، أو التعامل معها بمنطق التورية أو الترميز، ثم القول: نعم. حتى الفراشات لهن ضحايا، حتى الأطفال الوادعون في مهودهم لهم ضحايا، وياه ما أكثر ضحايا الجميلات!

ولكن هذا الاستخدام الشعري الرائق لمفردة «ضحايا» بكل قدرته على تفريغ المفردة من دلالتها الأولى البسيطة المباشرة؛ غير مناسب في الحالة هنا.

فعليا كان لهيفاء ضحايا، ولعل الشيء الوحيد الذي يخفف من صلتها بضحاياها هو انتفاء القصدية من جانبها، أي أنها لم تسع يوما ليكون لها ضحايا، ولم ترتكب بوعي وقصد أي فعل أو سلوك يجعل من ضحاياها ضحاياها.

ولكن ألا يبدو هذا استنتاجا متسرعا!! فلا يمكن لأحد الجزم بانتفاء القصدية من أفعالها التي جعلت ضحاياها ضحاياها!

ولذلك ولتحري دقة أكبر، من الأفضل القول: لم يكن واضحا أن ضحايا هيفاء باتوا ضحاياها، بقصد أو تدبير منها.

ربما يقود استنتاج مبكر إلى القول إن ضحايا هيفاء متصلون بشكل أو بآخر بصوتها، وهذا استنتاج صحيح، ويعقبه تأكيد أن كل ضحاياها كانوا على صلة بصوتها. وحتى لا يقود الاستنتاج السابق الصحيح إلى استنتاج متسرع خاطئ، لا بد من التأكيد على أن ما جرى لمدير الإذاعة ولكثيرين آخرين من افتتان بصوتها، بل استلاب حياله، ثم ارتطام بعدم اتساقه نهائيا مع شكلها، لا يعني أنهم هم الضحايا، ولا يمكن أن يكون هذا هو المقصود بالضحايا هنا، فلو أدخلنا مدير الإذاعة وأمثاله من عملاء المصرف والمستمعين في عداد الضحايا، لكانت هيفاء مجرمة كبرى. ولذلك فالضحايا المعنويون ليسوا في عداد ضحاياها، بل من هم مدار الحديث هنا ضحايا حسيّون وبكل وضوح.

وحتى لا يوحي التقديم الطويل حول ضحايا هيفاء بإيحاءات مبالغ بها، لا بد من القول إنهم لم يكونوا إلا عدة أشخاص، وهم ينقسمون إلى صنفين، ولتجنّب الإطالة والاستطراد يمكن الحديث عن شخص واحد من كل صنف.

الصنف الأول هم وهنّ من عملوا وعملن في قسم استعلامات الهاتف في المصرف في الفترة التي عملت فيها هيفاء، أي

زملاؤها وزميلاتها في القسم، ولم يتجاوز عددهم طوال فترة عملها أصابع اليدين.

أما الصنف الثاني فهم كل العاملين في برامج إذاعية في إذاعات البلاد عند الساعة الأولى من فجر يوم السبت، الساعة 00:00، وهذه البرامج كانت قليلة بل نادرة، ولم تتجاوز الستة.

أما الصنف الأول فبدأ يعيش أزمته بمجرد تعيين هيفاء في قسم استعلامات الهاتف، وبدء تلقيها اتصالات العملاء والمستفسرين. لم تكن مهمتها صعبة أو عسيرة فهنالك قائمة أسئلة شائعة، وبالكاد يسأل الزبائن غيرها، وكلها تتوفر إجاباتٌ تفصيلية لها على شاشة الحاسوب الذي تجلس هيفاء أمامه. ومع الزمن يكتسب العاملون في هذا المجال خبرة بسبب التكرار، فتغدو إجاباتهم على أسئلة المتصلين أسرع من أول عهدهم بالعمل. ولا يمكن لأي من العاملين في قطاعات شبيهة إنكار بساطة العمل تقنيا وإجرائيا، إلا أن صعوبته الحقيقة تكمن في تحمّل الضغط النفسيّ والعصبيّ الناجم عن الجلوس في كبينة ضيقة أو مكتب مكتظ لعدة ساعات، وتلقي اتصالات أكوام من البشر معدل ذكاء غالبيتهم يليق بقطّة لا بإنسان.

منذ اليوم الأول لم يخف على هيفاء أن التحمل وسعة الصدر – هذه تحديدا متوفرة عند هيفاء بكل معانيها- هما محكّ العمل ومستلزماته الضرورية، أما الجوانب الأخرى فلا قلق منها. وأدركت هيفاء سريعا أنه ينبغي عليها التفكير بذهنية الزبون الذي يتصل مرة واحدة كل عدة أسابيع، لا بذهنية الموظف أو الموظفة المستقبل لعشرات الاتصالات يوميا. ومع ذلك كله كانت هيفاء

تدرك جيدا أنها تبيع صبرها وتحملها مقابل حصولها على المال، ولكن ذلك لم يكن كافيا لتحمل كل أعباء الوظيفة الرتيبة الخانقة، كان لا بد من تفكير عملي آخر، وهذا دأب هيفاء.

وفرت الوظيفة لهيفاء مساحة جيدة لاستخدام صوتها، صوتها الذي وفّر لها الوظيفة، ولذلك قررت أن تتجاوز نقطة الضعف الأهم عند جميع العاملين في هذا المجال، ألا وهي الرتابة، وبقدر ما كان زملاؤها وزميلاتها يكررون عباراتهم الاستهلالية الترحيبية بكل متصل ويعيدون العبارات الوداعية الاحتفائية الختامية بالطريقة نفسها ونغمة الصوت نفسها والتقطيع نفسه والحرارة نفسها؛ كانت هيفاء تحيل العبارات القليلة تلك إلى كرنفال صوتيّ بديع، كان الاتصال حفلة صغيرة، مرحا غامرا ومجموعة أغان. ولذلك بدأت الضحايا بالتراكم.

تبدى الأمر بملاحظة تقنية قدمها مسؤول الاتصالات والشؤون التقنية لمدير المصرف، ومفادها أن الاتصالات التي يتلقاها قسم استعلامات الهاتف تعاني من اضطراب غريب غير مفهوم، واقتصر شرح المسؤول التقني على القول إن الزبائن يكررون الاتصال عدة مرات، ويغلقون الخطوط بمجرد سماعهم أصوات الموظفين والموظفات، ثم يعيدون الكرّة وهكذا. ولم يقترح للمسؤول التقنيّ أي مبرر لهذا السلوك. فكّر المدير للحظات، ثم طلب أرشيف يوم كامل ليستمع إليه.

أصابَ حدس المدير، وكان استماعه لتسجيلات يوم كامل تأكيدا لما ذهب إليه تخمينه أول الأمر، فالزبائن ببساطة يريدون

الحديث إلى هيفاء فقط، وحين ترد عليهم أي موظفة أو موظف آخر يغلقون هواتفهم ويعيدون الكرّة علّ الخطوط تقودهم إلى هيفاء. ويستمرون بالمحاولة، وفي أوقات متباعدة، حتى يسمعوا صوت هيفاء بعد الشريط الترحيبيّ الممل، وعندها يتنفسون ملء رئاتهم ويستفيضون في الحديث والتساؤل والاستفسار.

أحسّ المدير بارتباك بالغ من الأمر، وفكر فيه مليا واضعا مصلحة المصرف على رأس أولوياته كالعادة، وقرر على عجل دعوة موظفي وموظفات قسم الهاتف لاجتماع طارئ، واستهلّ الاجتماع بسؤالهم إن كانوا يلاحظون شيئا مستجدا على عملهم، وبالطبع كانوا قد لاحظوا ولكنهم لم يأبهوا بالأمر، ولذلك بدأ المدير اجتماعه معهم بنوبة تأنيب وتقريع على إهمالهم في عملهم، وتأخرهم في نقل ملاحظاتهم عن ما طرأ إلى الإدارة.

بدا أن المدير قد انفعل أكثر من اللازم، وقادته الحماسة إلى تحوّل الاجتماع إلى محاضرة في الكفاءة والمهنية والانتماء لهذا الصرح المالي الوطني الأبرز، وتحوّلت الأجواء رويدا رويدا إلى خطبة حماسية في ساحة معركة، بدل أن تكون اجتماعا بين مدير وموظفيه في مصرف، وظل اندفاع المدير يتعاظم حتى بلغ به الأمر للإفصاح عما يجول في خاطره، وقال:

«لم يمض على التحاق هيفاء بنا أكثر من شهر، فلماذا تبدو المسافة بين التزامها وعملها وبينكم، كأنها عشر سنوات؟ لماذا تتفانى هي في العمل بينما أنتم تعدّون الدقائق لمغادرة مكاتبكم وإلقاء سماعاتكم؟ عملكم بسيط وواضح، وأنتم جميعا تعلمون أن هذه

الوظيفة كانت ملاذكم الأخير بسبب عدم تحصّل بعضكم على تعليم يؤهله لوظائف أخرى، أو أنه لم يستطع الحصول على فرص أفضل، أو لأسباب خاصة أعلمها وتعلمونها جيدا. صحيح أنني وظّفت بعضكم إحسانا وعطفا ولكن ذلك لا يعني أنكم مطالبون بأقل مما يقدم الآخرون، أو أن الإحسان سيمتد ليغفر تقصيركم. لا تدفعوني لقول ما يزعجكم! لو أنكم فقط تستمعون إلى تسجيل اتصالاتكم واتصالات هيفاء لأدركتم الفرق ولاعترفتم بتقصيركم. أريد حيوية أكبر واهتماما أكبر وولاء أكبر لهذا المصرف العريق. وأرجوكم لا تضطروني لاتخاذ إجراءات صارمة. لا أريد منكم أكثر مما تفعل زميلتكم الجديدة، ولا أظنكم تختلفون عنها في شيء».

كانت تلك العبارة الأخيرة خاطئة تماما، وهذا ما جعل نظرات لئيمة تصوّب لهيفاء من جميع زملائها وزميلاتها، وهذا ما جعلها تشعر بتعكّر كبير، فالمديح الذي كاله المدير لها جاء في سياق أفقده كل قيمة، بل حوله إلى مجرد إضافات تحسينية على حفلة الإهانة والتقريع تلك، وأكد لها أن علاقتها مع زملائها وزميلاتها ستدخل مرحلة توتر وهذا ما فرض انعزالا مضاعفا على هيفاء وانقطاعا عن زملائها وزميلاتها، وهذا ما فسره الجميع على أنه فجاجة وسوء تصرف وعنجهية منها، بينما لم يكن في الحقيقة إلا تجنبا لصدامات صغيرة لا تحتملها هيفاء ولا تطيقها، بل وتجنبا لنظرات مهينة لا تريد أن تراها في عينيّ أي كان.

في الفترة اللاحقة لم يختلف شيء، بقيت الأمور على حالها، وباءت كل محاولات الزملاء والزميلات في تدارك الأزمة بالفشل،

وبدأ المدير يراقب جميع الاتصالات ولا يشغله في المصرف سوى قسم استعلامات الهاتف، ودخلت الأزمة فصولها الأخيرة مع ورود تحذيرات من مكتب المدير ومساعدته تفيد بنيّته صرف مجموعة من موظفي قسم استعلامات الهاتف لأن أداءهم في تراجع والقسم يواجه مشكلات حقيقية، وبدأت معالم ضحايا هيفاء بالوضوح وبدأ مصيرهم يتشكّل.

ولكن هل يعقل أن يحوّل فقدان الوظيفة أحدهم أو إحداهن إلى ضحية، ويحسب من ضحايا هيفاء؟ نعم، خاصة في مجال كالذي تعمل فيه، فالعاملون والعاملات في هذا المجال لا يلجأون إليه إلا في مراحل متأزمة، في مراحل لا تتمكن فيها المقومات والإمكانيات والأدوات من فتح الأبواب الكثيرة الموصدة.

وبالنظر إلى أحوال زملاء هيفاء وزميلاتها في قسم استعلامات الهاتف، يتضح أن تلك الوظيفة كانت خيارا أخيرا للمتعلمات والمتعلمين، وملاذا مؤقتا لكل من خنقتهم أحوالهم المادية الصعبة من الشبان والشابات، وعمليا كان تسريحهم من ذلك العمل، يعني وضعهم على حافة شارع خارجيّ سريع في ظهيرة حارقة.

ومن هؤلاء كانت فتاة جامعية مرحة لطيفة ضئيلة الحجم جميلة الملامح، وتعمل في قسم استعلامات الهاتف منذ عدة أشهر. كانت النجمة الصغيرة قبل قدوم هيفاء، ولكنها خفتت حتى خبت حين بزغت هيفاء في المصرف، وما جرى للفتاة هو ما جرى لزملائها وزميلاتها جميعهم، ولكن بمرارة أكبر.

كانت تضع أمامها على المكتب بين الهاتف وشاشة الحاسوب، صورة حبيبها، الذي التقته في مساء جامعيّ أيام امتحاناتها الأخيرة، كانت منهكة تحمل كل النعاس الممكن تحت جفنيها وكل الهزال في ظهرها وكتفيها وكل الإرهاق على شفتيها المتعبتين من ترديد الأسئلة والإجابات والحلول، ولم يكن هو أفضل حالا. ببساطة كانا في حال مزرية إلا أنها لم تمنع أيا منهما من العثور على ضائعه في الآخر، فتحابا كما يليق بشاب وفتاة يطرقان باب الدنيا بحظ وافر من الأمل والرجاء.

وحتى يقف الحب على أرض صلبة بدأ حبيبها بالعمل في شركة حواسيب وبرمجة، شيء بسيط يسمح له بالتجرؤ على التفكير بمستقبله معها، وهي بعد بحث طويل ومشاجرات صغيرة معه أصبحت موظفة في قسم استعلامات الهاتف في المصرف، وكانت تلك الوظيفة تسمح لها هي الأخرى بالنظر إلى صورته الموضوعة على المكتب أمامها والتفكير بالمستقبل الصافي، الذي يبنيه الجهد والحب، ولا يكتمل بأحدهما دون الآخر.

بعد الاجتماع الأول مع المدير، أو اجتماع التقريع ذاك، كانت الفتاة الأشد ألما وحنقا كونها لم تبخل بأي ذرة جهد في عملها، إن لم يكن ذلك ولاء للمصرف وتفانيا في أداء دورها فيه، فقد كان كرما لعيون حبيبها التي تشتاقها بتحرّق. ومصدر جزء كبير من حنقها أنها تعلم أنها تبذل كل ما في جعبتها في العمل، ولا يمكنها تحسينه أكثر، ولذلك شعرت بأن الأزمة ستتفاقم لا محالة.

ظل المتصلون بقسم الاستعلامات يغلقون الخطوط إن أجابهم أي كان غير هيفاء، وبدا أن المتصلين الجدد أيضا قد عرفوا بأمر

هيفاء، كأن أحدهم تبرع بإخبار كل عملاء المصرف الحاليين والمحتملين أن رقم قسم استعلامات الهاتف يخبئ سحرا، فدفع الفضول الجميع للاتصال.

باتت الأمور خلال أسابيع فوضوية بطريقة غير معقولة ولا متوقعة، وبدأ المدير يفكر باتخاذ خيارات حاسمة دون أن تتشكل لديه أية فكرة عن طبيعة تلك الخيارات.

دعا لاجتماع ثان وثالث ورابع دون جدوى، وبدا واضحا أن الموظفين غير قادرين على الإتيان بأفضل مما يقدمون، وبدأت قاعة الاجتماع أشبه بمباراة بين فريقين، هيفاء أحدهما والبقية في الفريق المقابل، وهيفاء تلتزم صمتا مطبقا حتى توجهت الفتاة زميلتها إلى المدير وطلبت منه مهلة علّها تجد حلا.

في صبيحة يوم من أيام الأزمة فاتحت الفتاةُ هيفاءَ بتحية فاترة، كانت تلك أول مرة تتحدث فيها إلى هيفاء، ودون مقدمات، قالت الفتاة: أنت تعلمين إلى أين وصلت الأمور، سيصرفوننا جميعا بسببك، أنت تتحملين المسؤولية كلها، هنالك عدة موظفين سيفقدون عملهم بسبب طريقتك، لا أدري كيف تشعرين، ولكنني أتمنى أن تفكري بما ينتظرنا إن بقيت تتصرفين بنفس الطريقة».

لم تجب هيفاء، ولم تبادر إلى أي خطوة مختلفة، بل استمرت بالعمل كعادتها وبطريقتها، كأن أحدا لم يتحدث معها. وبعد يومين على تلك المحادثة العجيبة، وحين كانت هيفاء تمر قرب مكتب الفتاة، أمسكتها من يدها وقالت لها وهي تشير إلى صورة حبيبها:

هذا خطيبي، أعمل أنا وهو طوال النهار والليل لنتمكن من الحياة معا، وإن بقينا على هذه الحالة سأخسر وظيفتي الوحيدة الممكنة».

كانت عينا الفتاة مليئتين بالدم والدمع، كأنها وصلت أسحق نقطة، حين تطلبين المساعدة من خصمك. أو هي محض محاولة لبدء حديث أنثوي خالص، ولكن هيفاء لم تقل شيئا ومضت صامتة.

كان المدير قد أرسل لكل العاملين في القسم سوى هيفاء رسائل تفيد بإنذارهم بالطرد من العمل إن استمر الوضع على حاله، وأخفى الزملاء والزميلات عن بعضهم أمر الإنذارات، وبدأ بعضهم بالبحث عن عمل آخر، وهيفاء منقطعة لا تعرف شيئا، بل لا تريد أن تعرف شيئا مما يجري وعلى أي شاكلة يمضي.

في تلك الأيام اختفى زميل وزميلة ولم ينتظما في العمل، وحدثت حوادث صغيرة لم يعلم بها أحد، أهمها أن المدير وباستشارة خبراء توصل إلى أن رغبة الزبائن بمكالمة هيفاء لا يمكن وقفها ولا ردّها، وبدل التعامل معها كمشكلة لا بد من التفكير بالاستفادة منها، ولهذا وجد أمامه خيارا واضحا، لا بد من جعل هيفاء تستقبل جميع المكالمات دون أن تدري.

ولاستثمار الحالة إلى أقصى حد سيتم تغيير شريط الانتظار المسجل وتحديثه دوما بإعلانات عن خدمات المصرف، فهذه المساحة الإعلانية ستتوسع مع انتظار العملاء والمتصلين دورهم للحديث مع هيفاء. يضاف إلى ذلك وضع رسوم بسيطة جدا على المكالمات بعد أن كانت مجانية، وسيفرد خط خاص لهذا الغرض، وسيهتدي العملاء إلى أن هذا هو خط هيفاء دون إعلان عن ذلك،

وسيوضّح الشريط المسجل الزبائن أن هنالك رسوما على اتصالهم ولن يترددوا في دفع تلك النتف البسيطة مقابل سماع صوت هيفاء. ولتجنّب أن تتحكم رغبة العملاء والمتصلين بالعمل كليا تم إقرار حد أقصى لمدة المكالمة وكان ثلاث دقائق، وأفرد المدير مدة أسبوعين كاختبار للآلية الجديدة، وسمى الخط الجديد «الخط الماسيّ».

بدأ الزملاء والزميلات بالاختفاء واحدا فواحدا، كان يسرّحون من عملهم للسبب الواضح البسيط، ولم تكن هيفاء تشغل بالها بالأمر، بل لم تكن الاتصالات المتتالية تسمح لها بالتفكير بأي شيء، وتجنبا لمعرفة هيفاء بالأمر بدأ المدير بتوظيف موظفين شبه زائفين ليحلوا محل من طردوا وغادروا، وكان هؤلاء يتقاضون مبالغ تافهة مقابل جلوسهم لساعات في المصرف، وربما كانوا يتلقون اتصالا شاردا من متصلين يستخدمون الأرقام القديمة.

فعليا كان المدير يتاجر بصوت هيفاء دون أن تدري، وحين ساورتها شكوك متتالية بعد شهر تقريبا وتوجهت للمدير، بادرها بزيادة مجزية على راتبها، زيادة لم تكن تتوقعها، ولأن هيفاء عمليّة أذابت شكوكها في محلول زيادة الراتب غير المتوقعة وخرجت.

كانت الفتاة آخر الراحلات والراحلين، ولكن لسبب آخر غير السبب الذي رَحَّل زملاءها وزميلاتها، ففي الوقت بدل الضائع من الأزمة حاولت فعل أي شيء تنقذ به عملها، فغيّرت لهجتها ونبرتها في اتصال تلقّته وأفلحت في الاحتفاظ بالمتصل ولم يقفل الهاتف وينهي الاتصال. خلال ذاك الاتصال لم تنظر الفتاة إلى صورة حبيبها، وبعد أن أنهت المكالمة بكت بحرقة وقهر، وقبل أن تتمالك نفسها استدعاها المدير.

لم تكن تعلم أن المدير يراقب الاتصالات منذ مدة، وكان أذنا ثالثة تستمع للمكالمات المسجلة، وتحديدا مكالمتها مع المتصل الأخير. ودون تفصيل قال لها بحزم عبارة واضحة: «لا أدري كيف سوّلت لك نفسك فعل ما فعلتِ! هل تعتقدين أنك بتلك الطريقة الرخيصة ستؤدين عملك وتحافظين عليه؟ سيتصل بك المسؤول المالي لترتيب إنهاء عملك». خرجت الفتاة من المصرف ودخلت في تيه كامل. كانت الضحيّة الأهم من ضحايا نهار هيفاء.

10

في مجتمع درج علماء الاجتماع المحليون على وصفه بالمحافظ والتقليدي، يبدو تأخير الحديث عن «العائلة» مدعاة للريبة والتساؤل، أو على الأقل غريبا. ولكن الحقيقة – وبما أن هيفاء محور الحديث– أن الانشغال بالعائلة غير محوري أو جوهري في حياتها، أو في الشطر الذي يدور حديثي حولها خلاله، أي الفترة الواقعة بين مساء عبّاس الكالح، وكل المسارات الزمنية التي اتصلت به لا سيما تلك التي اقتضاها الحديث عن هيفاء وبرنامجها خلال أسابيعه الثمانية والثلاثين.

ودفعا لأي استغراب أو تساؤل يمكن القول إن هيفاء كانت «مقطوعة من شجرة»، وحتى لا يحيلنا التعبير الشائع إلى حالات قد نفترض أنها شبيهة، لا بد من القول إنها كانت مقطوعة، مقطوعة وكفى، أو بلغة أفصح «منبتّة» عن أي أصل عائلي.

هذا ما تؤكده خالتها، أو تلك المرأة التي ربّتها، بل بالأحرى ساكنتها حتى اقتراب هيفاء من عشرينها. وتأكيدات السيدة تلك كانت مادة أساسية في طفولة هيفاء، فهي في المدرسة كانت تنادى

باسم رباعي كامل فيه أب وجد وعائلة، وحين تسأل خالتها عن تلك الأسماء وماذا تعني، تقول لها إن هذه الأسماء ككل الأشياء التي تلقّنها في المدرسة، ستفهمها حين تكبر.

بالمناسبة، لم تأخذ هيفاء من المدرسة الابتدائية والمتوسطة إلا القراءة والكتابة، وما سواهما لم يكن شيئا، كانت خشبا على خشب، تعدّ الساعات حتى موعد مغادرة المدرسة وتمضي إلى بيت الخالة، لا صداقات طفولية ولا ملاحقات من ذكور المدارس القريبة ولا البعيدة، ولا علاقة مميزة مع معلمة أو مدرس، حتى أنها نسيت المدرسة وسنواتها ولا تذكر منها إلا كل ما ينقصها، الأهل في زيارات تفقدية لبناتهم ومستواهن، وشح الثياب والقرطاسية في بداية كل عام دراسي، والتغيب عن الرحلات المدرسية وأسرار المراهقات في المدرسة المتوسطة وعبارات المديح والثناء التي توزعها المعلمات على الجميع وينسينها عندها.

كبرت هيفاء، ويؤرّخ للمرحلة التي بدأ الناس فيها يقولون لهيفاء إنها كبرت، بتلك النظرات التي كانت تتحول سريعا من وجهها إلى أسفل قليلا، إلى صدرها أو ما صار يسمى صدرها، في تلك الفترة تحديدا لم تعد تكفي البلوزة الخفيفة الصيفية وصار لا بد من شيء تحتها. وفي تلك المرحلة أدركت هيفاء أن أسماء الأب والجد والعائلة ليست خبرا يلحق مبتدأ ولا عملية ضرب وقسمة، بل ترتيبا قديما حافلا بالدلالات، أقلها أن تلك التي تسمي نفسها خالتها ليست «عائلتها».

أمام ضغط المعلومات والأسئلة قالت الخالة إن والد هيفاء عجوز مقعد قبيح الخلقة والخلق تبرم منه أولاده ورتبوا زواجه من

صبية خرساء ضاق بها أهلها، وإن إخوة هيفاء غير الأشقاء، ألقوا بالأم الخرساء وأبيهم المقعد في بيت متهالك مع قليل من النقود تصل إلى باب البيت بداية كل شهر، وفي بداية الشهر العاشر على الزواج باتت النقود تقسم على ثلاثة بدل اثنين.

بالطبع لم تضبط الخالة هواها حين أخبرت هيفاء بحكايتها الأهم، ولم تفوت فرصة للضحك القبيح، وقالت ما معناه إن أحدا لم يكن يتخيّل أن هنالك شيئا يمكن أن يقف في جسد العجوز المقعد.

كانت هذه النكتة السوداء من نوع تتقنه الخالة، وتلك التورية تحديدا هي ما جعل هيفاء تقتنع بعد ثلاث سنوات من التفكير أن حالة «المقطوعة» أفضل من حالة الأب المقعد المشكوك في أبوّته والأم الخرساء المشكوك في شرفها والإخوة الذئاب. وأن أي مكان في الكون هو أفضل من بيت الخالة، خاصة أن الخالة بدأت بعيد بلوغ هيفاء السادسة عشرة تقول كلاما كثيرا يفيد بتبرمها من وجود هيفاء وضيقها منها، خاصة أن هيفاء لا تطاوعها.

والحقيقة أن خروج هيفاء من البيت إلى أي مكان آخر كان إنقاذا لحياتها من جحيم الخالة الذي أخذ يتضح في تلك الفترة، أو ربما بدأت هيفاء تدرك حقيقته، فهي ككل الأطفال يدركون بعد حين حقيقة ما عايشوه في طفولتهم، كأن الطفولة خالية من المعنى، وما يسميه الناس مراهقة هي تلك الفترة التي تبدأ الأشياء فيها بأخذ معاني محددة وجديدة، فيعيد الأطفال قراءة ماضيهم ويدركون معاني الكلمات واللمسات والأنفاس والنظرات.

ولذلك كله كان أهون على هيفاء العيش في مأوى لرعاية العجزة والمسنين على مواصلة العيش مع الخالة تلك. واتخذت هيفاء قرارها المفصلي ورتبت مع مأوى العجزة الذي سيصبح بيتها، بعد زيارة مدرسية للمأوى ضمن نشاط للخدمة الاجتماعية. حدث ذلك حين بدأت الخالة تطلب من هيفاء الكثير من الأشياء الغريبة لقاء إخبارها ببقية حكاية العائلة والاستمرار في إيوائها، ما دفع هيفاء لترك بيت الخالة وبناء رواية خاصة بها، تقول إن العجوز المقعد توفي قبل إتمام العام الأول من زواجه وأن الأم الخرساء دفعت للخالة لقاء رمي ابنتها لديها ومضت لتقتص من عائلتها التي رمت بها عند العجوز المقعد. وأقنعت هيفاء نفسها بهذه الرواية دون أسئلة ولا شكوك، وقررت أن اسمها مكتمل بذاته ولا يحتاج لثلاثة أسماء خلفه ليحيا.

ولتحيا ويحيا اسمها اقتنعت هيفاء أو أقنعت نفسها أن ما حدث لها في الماضي، أو في ذاك الفصل الأوليّ من الحياة المسمى «طفولة» لا يستحق التوقف عنده كثيرا، فهي ليست طبيبة نفسية ولا خبيرة تعدّ بحثا عن العلاقة بين الطفولة وكل سلوك يأتيه الإنسان في حياته.

كانت مقتنعة أن أمر الحاضر بيدها وهي قادرة على تدبّره دون أحمال سابقة، وأن ما سبق الحاضر، باستثناء جسدها، لا علاقة له بالحاضر ولا المستقبل. ورغم أن هذه القناعة قد تكون ضربا من الجنون والعبث برأي كثيرين وكثيرات إلا أنها اقتنعت بها تماما وعاشتها بالتفصيل، وهيفاء كما ورد سابقا عمليّة بطريقة حادة وتتعامل مع الأشياء كأنها مثلها، «مقطوعة» عن أي شيء سابق.

يمكن مما سبق استنتاج أن حياة الخالة كانت حافلة، بالرجال تحديدا، رجال الليلة الواحدة.

ولمن يعتقد أن هذا الاستنتاج اعتباطي يمكنه التعامل معه كمعلومة موثوقة الآن.

المميز في حالة الخالة، أن وجود الرجال لم يكن ماديا دوما، بل هو في أغلب الأحيان غير مادي، فهم موجودون في كل همسة وحركة وسكنة تأتي بها الخالة النهمة. وتمنيات الخالة التي لا تنقطع بدخول أحدهم من الباب كانت تجعل حضورهم دائما. وأغلب الظن أن الخالة لو كانت أقل قبحا لكان حضورهم المادي في حياتها أكثر، وأن هيفاء الصبية/ الطفلة بنت الستة عشر عاما لو طاوعت خالتها لكان حضورهم المادي أكثر أيضا، وأن المجتمع لو كان أقل محافظة وتشددا لكان حضورهم أكثر، وهذا تحديدا رأي الخالة وما صرحت به مرارا وبتعبيرات شتى، وهذا الرأي عقّبت عليه هيفاء في حلقة شجاعة من حلقات برنامجها.

11

الحلقة الحادية عشرة

«صديقاتي وأصدقائي .. كيف أنتم اليوم؟ اشتقت لكم كثيرا، تظلون معي طوال أيامي وفي كل لحظة أتنبّه فيها لشيء جديد أو أجدني في موقف يدفعني للتفكير. سأخبركم بأحد تلك المواقف، حصل قبل يومين.

ذهبت إلى أحد محلات التحف المعروفة في رام الله، كنت أنوي شراء هدية، ولأن الوقت كان متأخرا لم يكن في المحل إلا شاب صغير أظنه أحد العاملين هناك أو ابن صاحب المحل. أعجبني تمثال صغير من نحاس، شيء يشبه جسدا مضطربا.

التقطه الشاب وسألني إن كنت أريده كهدية، فقلت نعم. فعرض علي مجموعة جميلة من الأغلفة الورقيّة لأختار منها. طلبت منه ألا يضعه داخل علبة، وأن يغلفه كما هو. بدا عليه التوتر قليلا ثم بدأ بالتغليف.

انشغلت عنه بالنظر إلى بقية القطع في المحل، وبعد دقائق انتبهت إلى أنه في ورطة على ما يبدو، فهو جديد على التغليف كما بدا لي.

يوقف التمثال ثم يلقيه ثم يحمله، وورق التغليف يتفلّت من بين يديه، كأنه في مصارعة مع التمثال الصغير الحزين.

لم أتدخل، تركته يكمل مغامرته الشاقة، ووقفت من بعيد أراقبه وأفكر.

لاحظت أنه غلف التمثال بقطعة أولى، ولكنها كانت مشوهة مجعّدة من كثرة تقليبه للورق الملون وثنيه وطيّه، لم يكن شكلها يصلح كهدية، إلا أنه احتفظ بالتغليف وجلب قطعة ورق أخرى وبدأ يغلفه بها فوق الأولى، وبعد دقائق انتهى من الغلاف الثاني، لم تكن النتيجة جيدة ولكنها أفضل بكثير من الغلاف الأول. لم يتردد الشاب بجلب قطعة ورق ثالثة وتغليف التمثال مع الغلافين السابقين وكانت النتيجة أفضل وأقل تشوّها.

حمل التمثال المغلف بثلاثة أغلفة ونظر إليه وأنا أراقب، ثم وضعه وتحرّك لجلب قطعة رابعة. عندها تدخّلت.

ابتسمت وقلت له شكرا، لا أظن أن التمثال يشعر بالبرد لهذه الدرجة!

ضحك الشاب، وبدا كأنه يقول لي معتذرا إنني أعرف لماذا كل هذا التغليف.

شكرته مبتسمة ودفعت له وخرجت وأنا أفكر وأفكر.

وإليكم يا أحبائي ما خطر في بالي:

يبدو أن ما يميّزنا كبشر عن بقية الكائنات هي قدرتنا العالية على التغليف.

تغليف رغباتنا ومشاعرنا ودوافعنا وغرائزنا. لا تمتلك الكائنات الأخرى هذه الموهبة. بل ويبدو أننا نقدس التغليف ونشجع عليه بكل قوة في كل حين. رغم معرفتنا بوجوده ومعرفتنا دوما أنه يغطي حقيقتنا ويحجبها.

ومن الواضح إن رجعنا إلى الشاب في محل الهدايا، أنه كلما كان الشيء المغلّف أبسط وأوضح، كمربع أو مستطيل مثلا، صار تغليفه أسهل، ولذلك أراد الشاب أن يضع التمثال داخل علبة ليريح نفسه في تغليفه. وبالتأكيد كلما كان المغلَّف أعقد وأغرب ومليئا بالتعرجات والالتواءات والنتوءات، صار التغليف أصعب بكثير.

الملاحظة الثانية التي خطرت ببالي والفضل فيها للشاب الذي أتمنى أنه يسمعني الآن: أنه كلما ازدادت الأغلفة اختفت ملامح الشيء المغلف. قد تبدو هذه ملاحظة عادية، ولكن تخيلن معي وتخيلوا أيتها الصديقات والأصدقاء أننا أطلقنا ورشة ضخمة للتغليف، وعيّنا الشاب مديرا لها، ماذا سيحدث؟

ستصبح الأشياء كلها متشابهة مع تلك الأكوام من الأغلفة.

ربما سيصبح التعامل معها والتحكم بها أسهل وأيسر، مع ضمان عدم خدشها ولا كسرها. ولكن ببساطة ومع كل هذا التغليف لن تكون الأشياء نفسها. وحين نفكر بالوصول إليها، أي بالإمساك بها كما هي، سنحتاج الكثير من الوقت ونحن نزيل الأغلفة ونتخلص منها.

قد تمتلئ الدنيا بالأغلفة المنزوعة تلك، وبالتأكيد سنحصل على نتائج متباينة، قد تعجبنا الأشياء بعد إزالة الأغلفة وقد لا تعجبنا، إلا أننا ببساطة سنعرفها كما هي.

دعوني أدعوكم للعبة خطرة قليلا، فكروا وفكرن معي بأي سلوك فعلتموه اليوم مساء وكان في حقيقته تغليفا لغاية أو هدف في داخلكم.

يمكنني طرح الكثير من الأمثلة التي تحدث معنا كل يوم، ولكن من سيمتلك الجرأة ليتصل ويخبرنا جميعا.

دعونا نتفق أن ساعتنا هذه ستكون بدون أغلفة ولا تغليف، اسمحوا لي أن أدعوكم لساعة نتخلص فيها من مهارتنا الكبرى في التغليف.

وكذلك أتمنى من كل متصلة ومتصل أن يخبرنا إن كان يفضّل التعامل مع الناس مع تغليفهم أم بدونه.

أحب أن أسمع صوتكم، وليس مهما أن تعرّفوا بأنفسكم، ربما أسماؤنا أيضا نوع خاص من الأغلفة».

اتصالات:

لم تستفرد هيفاء بعد مقدمتها بأية دقيقة، ظلت حتى نهاية ساعتها تستمع للمتصلين وتفرد لهم كل الوقت، وكان واضحا أنهم مع تقدم الحلقة يدركون تماما ماذا تريد هيفاء وماذا تقصد.

بدأت متصلة بحديث هادئ فيه شيء من الضحك وقالت إن نشاطها السياسي في تنظيم معروف كان تغليفا لرغبتها بلفت انتباه شاب في الجامعة ناشط في التنظيم، وإن نشاطها كان يزيد من فرصها في التقائه، وختمت بتأكيدها إن احتمال انضمامها لأي تنظيم آخر كان ممكنا لو كان فيه.

قال متصل بتوتر إنه حين يقدم أي شيء لابنه وابنته الصغيرين يظل يفكر كيف يمكنه أن يضمن ردهم كل ما يفعله لهم حين يكبرون، واعترف أنه لولا أمله بالمقابل لما فعل شيئا لهم. وأن ما يفعله لهم، مجرد تغليف لخوفه من الإهمال والضعف في آخر حياته.

قال رجل بصوت واضح إن شيئا مهما لم يحصل معه هذا المساء، ولكن هيفاء ذكرته بما حصل مع امرأة قبل سنوات، حين اضطر لتغليف رغبته بها لليلة واحدة، بعشاء باهظ جدا كلّفه راتب شهر كامل، إلا أنه نام ليلته وحيدا يفكر ممن سيستدين تكاليف الأيام الباقية حتى الراتب القادم.

قالت متصلة إنها تؤخر موافقتها على الارتباط بحبيبها حتى تتمكن من نزع كل أغلفته، وقالت إنها ستتصالح معه دون أية أغلفة وتغليف، المهم أن يكون صريحا ويتوقف عن التغليف.

قالت متصلة بلغة وقورة إنها تخاف من الآخرين وهم مغلفون فكيف إن نزعت أغلفتهم!

تساءل صوت رزين إن كان أي من المتصلين أو المتصلات أو حتى هيفاء موافقا على الظهور أمام الناس دون أغلفة؟ وإن كنا نرفض هذا فلماذا ندعو له؟

تدخلت هيفاء وقالت إنها لا تدعو إلى شيء، واستقبلت اتصالا آخر قالت فيه فتاة يانعة الصوت إن هيفاء قالت إن هذا التغليف هو ما يميزنا نحن البشر عن بقية الكائنات وإن أزلناه فهذا يعني أننا نفقد ما يفرقنا عن الحيوانات مثلا، ومن يريد ذلك!

في اتصال آخر قال أحدهم إننا أوجدنا التغليف لأننا نحتاجه ونريده. ورد عليه آخر قائلا إن التغليف فرض علينا بمسميات كثيرة وتحت ذرائع مختلفة لتسهل السيطرة علينا والتحكم بنا.

التقطت متصل حرارة الاتصال السابق وقالت إننا جميعا في لحظة ما نجلس مع أنفسنا دون أغلفة، ونجد سعادتنا وراحتنا مع أولئك الذين لا نحتاج الأغلفة معهم.

ردت عليها متصلة أخرى تحدّتها أن تعيش ليوم واحد مع المقربين منها دون أغلفة، وقالت إنها رفضها للأغلفة كلفها الكثير وهي متصالحة مع الناس بأغلفتهم لأنها مثلهم.

...

كانت الصراحة والجرأة واضحة، وصمت هيفاء أوضح في تلك الحلقة، وغلبت الرغبة في نزع الأغلفة على الاتصالات، ربما كانت تلك إشارة إلى نوعية جمهور برنامج هيفاء، ولكنها لم تأبه بها كثيرا.

لم تحدد هيفاء بالضبط ماذا تريد من هذه الحلقة ولا من غيرها، أدركت سريعا فعالية عدم التحديد وغياب القصد والهدف أو تشويشه، حتى لا يحدّ ما يريد المتصلون والمتصلات. وظلّوا هم يحركون حلقتها على مسمعها وهي سعيدة تماما. هيفاء عرفت وهي خلف المايكروفون أن جمهورها لا يحب من يريد أخذه إلى مكان معين أو غاية محددة.

12

ينظر الناس إلى الصدف في حياة الآخرين بعين الريبة مع ميل إلى عدم التصديق، ولو أن الصدف نفسها تجمّعت في حيواتهم لما تنبّهوا للأمر، لأن العيش قبل كل شيء هو فعل اعتياد، ولأن تعبير «صدفة» إنما هو الاعتراف الصريح بانعدام القدرة على تفسير ما جرى ويجري، أو تعليق البحث في كيفية جريان الأحوال والأمور، فيوضب الأمر داخل خزانة كبيرة تسمى «الصدفة»، ولذلك ولأن لا متسعا هنا لشرح المجريات وتفسيرها، ناهيك عن معرفتها أصلا، يمكن القول إن ما قد يرد هنا كصدفة هو ببساطة ليس كذلك.

يمكن القول أيضا إن الصدفة هي تعبير عن كل حدث لا يقوى معايشه أو متابعه أو راويه أو محلّله على عقلنته، وكلمة «عقلنة» -على صحة استخدامها من حيث المعنى هنا- قد تبدو حين تذكر في هذا السياق أشبه ببثرة كبيرة حمراء حتى السواد، تعلو رأسها كرةٌ صفراء صغيرة تهدد بانفجار وشيك في وجه فتاة بارعة الحسن!

ولكن الصراحة تقتضي القول إن البثرة تلك، واحدة من خمس على الأقل لا يغادرن وجه هيفاء، ويتناوبن على كل مللمتر مربع من

سحنتها، ولذلك لا ضير في استخدام «عقلنة» في سياق الحديث عن هيفاء، فليست نابية أكثر من تلك البثرة التي تتوسط المسافة بين أذن هيفاء وأنفها.

وهذه «العقلنة» تقول إن أفعال هيفاء في مأوى المسنين والعجزة هي مقدمة علاقة سببية قادت إلى نتيجة هي عملها في المصرف في قسم استعلامات الهاتف.

يمكن القول مثلا إن هيفاء بعد أن اتفقت مع مديرة المأوى على العمل في خدمة النزلاء والنزيلات مقابل النوم والطعام ومصروف شحيح، كانت في أحد الأيام تنظّف ملابس عجوز تسعينية، وحدها الإشارات الحيوية تثبت أنها لا تزال على قيد الحياة، فإذا بابن العجوز يدخل إلى غرفتها في المأوى ويسأل هيفاء عن حال أمه وتجيبه، فيعجب بصوتها ويعرض عليها العمل في قسم استعلامات الهاتف في المصرف بوظيفة جزئيّة وراتب جيد، مقابل أن تعتني بأمه جيدا في نوبتها المسائيّة في المأوى.

يمكن وصف ما مضى بالصدفة، ولكن قليلا من البحث حوله أو البحث عن علاقات «منطقية» «سببية» «معقلنة» يبيّن إلى أي حد يبدو دمغ ما حدث بكلمة «صدفة» اعتباطيا ومجانبا لمجرى الأمور الفعليّ، وإن كانت النتيجة واحدة، ويمكن اختصارها بما سلف.

هيفاء مذ بدأت العمل في المأوى قررت أن خلاصها لا بد أن يكون قريبا، وأن مرورها في مأوى العجزة هو مسار اضطراري تتخلص خلاله من كل رواسب الطفولة لتمضي إلى مرحلة لاحقة، مرحلة النضج والرشد.

والحقيقة أن تفكيرا كهذا كان عين النضج والرشد ولكن المسار اضطراري أيضا للتخلص من تبعات الطفولة المادية والمعنوية، وهناك في مأوى العجزة نضجت هيفاء بسرعة فائقة، سرعة تليق بتجربة عيش خريف العمر أو معايشته في سن العشرين.

منذ اليوم الأول قررت هيفاء، بحكم آثار تجربتها مع الخالة، أن العمل مع النزيلات يناسبها أكثر من العمل مع النزلاء، وفعليا كانت الوظيفة تتطلب تماسا جسديا فيزيائيا مع أجساد العجزة، وكانت هيفاء تشعر برهبة هائلة من فكرة رؤية أو مس جسد رجل، ولذلك اختارت العمل مع العجائز الإناث، وكانت تلك قناعة الأسابيع الأولى من العمل، ثم تبين لها إن العجائز من الناحية الفسيولوجية والحسيّة سواء، أكانوا ذكورا أو إناثا، وما التقدم في السن إلا إذابة للفروق البيولوجية بين الجنسين حتى يكاد لا يبقى كعلامة على التمييز بينهم إلا ما بين أرجلهم ، بل بالأحرى ما تبقّى مما بين أرجلهم.

الأمر شديد الشبه بحالتهم الأولى في الطفولة، وهذا جانب آخر من مزايا خبرة هيفاء التي أكدت لها أن الشباب هو ببساطة فعل الإنسان بجسده، أما الطفولة والشيخوخة فهما فعل الجسد بالإنسان. وبالمنطق نفسه كان جسد هيفاء يجعل منها عجوزا بالكاد أغلقت عقدين من عمرها.

منذ الأسبوع الأول لعملها بدأت هيفاء بجمع المعلومات عن النزيلات والنزلاء، ومحاولة تحديد أيهم وأيهنّ يحمل لها فرصا، ويفتح أمامها خيارات. ولذلك كانت تهتم بمعرفة وظائف من

يأتون للاطمئنان على النزيل أو النزيلة ولماذا هم في المأوى، بالإضافة إلى معلومات عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لأسر سكان المأوى، تضاف إليها معلومات عن حالاتهم الصحية، وإمكانية توثّق العلاقة بينها وبينهم.

ولذلك كله اختارت هيفاء النزيلات ذوات العوائل المترفة والدخول المادية الممتازة، ومن لهن أبناء يترددون كثيرا على المأوى، وتحديدا الأبناء الذين يعملون في قطاعات مهمة تتوفر فيها الوظائف.

والنزيلات من هذا النوع كن يقمن في الطابق الرابع من المأوى، ولذلك كان عمل هيفاء في مجمله مكوثا في ذاك الجزء الأعلى من المأوى. وعمليا فإن وجود موظفة أو عاملة تريد وترغب، بل تطلب العمل مع تلك الفئة من النزيلات والنزلاء، كان نادرا جدا، بل صدفة تدفع إدارة المأوى للتشبث بمن تحتمل العمل في الطابق الرابع وتقديم كل التسهيلات والمغريات الممكنة للحفاظ على من ترتضي القيام بمهمات تلك الفئة من النزلاء، وذلك لأن تلك الفئة الميسورة من سكان المأوى كانت تشكل حالة خاصة يتطلب العمل معها استعدادا خاصا.

في الغالب فإن الميسورين يدفعون مبالغ مجزية لرعاية مسنيهم ولذلك فإن أي تهاون أو تقصير أو سوء تعامل ستكون عواقبه وخيمة، وعلى الأقل سيغادر النزيل أو النزيلة أو ينقله أهله إلى مأوى آخر. وفعليا فإن القوام المادي الحقيقي لدور العجزة هو ما تدفعه الفئات الميسورة لضمان سنوات أخيرة هادئة لمسنيهم.

ولذلك فالعمل مع هذه الفئة كان ضاغطا على الأعصاب قبل العضلات، ويتطلب جلدا نادرا وصبرا من نوع فريد وإدراكا لحقيقة التباينات التي تجعل هذه الفئة محطّ رعاية فائقة وحتمية، وهذه الحال تجعل العمل مع تلك الفئة الأنكد والأتعب في المأوى كله.

ببساطة لا تأبه إدارة المأوى بتغيير ملاءات نزيلات الطابق الأول، ولا يفكّر القائمون على المأوى والمستثمرون فيه إن كانت النزيلات أو النزلاء الفقراء قد تناولوا جرعات الدواء قبل النوم. بل إن عدم الاهتمام والتسيّب في التعامل مع النزلاء الفقراء يدفع العاملات في المأوى للتهاون في رعايتهم والتقصير الفادح، مع ضمان ألا عواقب قادمة. وهيفاء تدرك كم تبدو كلمة «تهاون» لطيفة في هذا السياق.

وفق هذه المعطيات تتزاحم العاملات عند العجزة الأقل حظا ومكانة، وتجهد إدارة المأوى في البحث عمن يقبلن العمل في مع الفئات الأغنى والأكثر حظا. ولذلك كله كان صعود هيفاء إلى الطابق الرابع مكللا بترحاب الإدارة وعنايتها.

عمل هيفاء في المأوى يمكن أن يصنّف ضمن الأعمال التي يزيدها مرور الزمن سهولة، فبعد شهر من العمل يغدو كل شيء واضحا ومفهوما ومدروسا خاصة في الطابق الرابع. وعلى الرغم من كل الجهد المضاعف مرتين وثلاثا يمتاز الطابق الرابع بميزة أساسية، هي بعده عن الطابق الأول، ذاك الطابق الكريه الأسود، والذي كان قضاء هيفاء خمسة أيام فيه حين بدأت العمل كفيلا بدفعها لفعل أي شيء لتركه.

كان سلوك العاملات يزيده قتامة وبؤسا، وتحديدا حين يغلقن أبواب غرف النزلاء والنزيلات ويقفلنها دون أن يتممن عملهن، فيتركّز مزيج روائح الفضلات وبقايا الطعام والأدوية والمراهم وسوائل التنظيف، ويتحوّل الليل إلى جوقة صراخ لا ينقطع، صراخ مغلّف بشتائم وآهات وبكاء. كان سماع ذاك المزيج من الصراخ طوال الليل يفقد هيفاء اتزانها، ولم تكن تفهم كيف اعتادت العاملات على المقطوعات المظلمة تلك، فطلبت بكل عبارات الرجاء والأمل أن تُنقل إلى الطابق الرابع، حيث التعب والضنك بكل أنواعه سيغدو محتملا إن قيس بليالي الطابق الأول.

والحقيقة أن كل ما كان يجري في الطابق الأول كان يهون أمام حالة غارت عميقا في عقل هيفاء، حالة العجوز في الغرفة الملاصقة لغرفة هيفاء طوال الليالي الخمس الحالكة في الطابق الأول.

تلك التي تسميها العاملات «عجوز الأسماء».

لم تكن «عجوز الأسماء» تبدي أي ملمح بائس أو خطر أو مميز يوحي بما يجعلها مختلفة عن أية عجوز بعمرها، إلا أن خلف الملمح العادي كانت تختبئ حالها التي لا تفصح عن نفسها إلا في جوف الليل، وجوف الليل هو وقت غير محدد منه، تبدأ فيه العجوز بالنداء على أسماء لا تنتهي.

قائمة أسماء طويلة تنادي عليها العجوز بصوت رتيب عادي متكرر كأنه دون نهاية.

حين تركت هيفاء العمل في المأوى بعد ظهور «الخط الماسيّ» في المصرف، وتمكّنها من استئجار شقة صغيرة، كان يمكن لها أن تطوي كل ذكريات المأوى إلى غير رجعة بل وتنساه بتقصّد عال، إلا أن عجوز الأسماء لم تكن لتعتق ذاكرة هيفاء وتعبر إلى النسيان كأي ذكرى مقيتة، بل كان لها موعد أسبوعي مع هيفاء لا تخلفه.

13

في أحيان كثيرة يغدو وصف الفئة التي ينتمي إليها شخص ما، مدخلا أساسيا لوصفه والتعرف إليه. وعلى الرغم من قسوة هذا الافتراض، وإجحافه بحق أي شخص بالتميز كفرد، وحقه بوصفه فريدا متفردا، إلا أن ذلك لا يعني أن الافتراض خاطئ كليا، أو أن هذه الطريقة في التعريف والوصف دون فائدة. ربما المشكلة هي في الجزم بأن هذه الطريقة وافية كافية لوصف الأفراد، ولا يمكن لأي كان أن يتفلّت منها.

وقبل استخدام هذه الطريقة مع عبّاس، يجب الاعتراف، وتجنب إنكار أن هذه الطريقة سهلة وينحاز إليها الكسالى، وأفسدُ ما فيها أن الناس يميلون لاستخدامها خلال حديثهم عن الآخرين، ثم يستهجنونها كل الاستهجان إن استخدامها أحد معهم أو طبّقها عليهم.

كل هذا لا يقلل من رغبتي في طرحها والاستفادة منها، أو على الأقل طرح أحد أوجهها، دون جزم ولا يقين ولا ادعاء لا أملكه، بل محض محاولة للحديث أكثر عن عبّاس، أو ملء فجوات معرفتي به.

وتجنبا للمزيد من الحديث عن الحديث، يمكن القول إن عبّاسا من ذلك الحشو الكبير.

الحشو الذي يحوّل الأفراد إلى جماعة أو مجتمع. الحشو الذي يقع بين «الأفراد» و«المجتمع».

بطريقة أخرى: حين نسمع بمكان ما، بلد أو دولة أو أي بقعة في هذا العالم، فإننا نعرف منها أفرادا، بارزين أو مؤثرين أو فاعلين وصناع أدوار، لديهم ما يكفي من شيء ما حتى نسمع بهم ويُعرفوا فرادى. وفي الوقت عينه نعرف المجموع والجماعة والمجتمع الذي يحيا في تلك البقعة.

عبّاس وأمثاله هم من يملؤون المسافة بين تلك الأسماء المفردة وذاك الشيء المسمى جماعة، مجتمعا، عامة، سكانا، شعبا.

عبّاس من الحشو العريض الذي يحوّل الأفراد إلى مجموع.

يشبه صغار العملاء في المصرف، أصحاب حق الانتخاب في أقاصي الأرياف، المجتمعين حول شجار في سوق قديم، ركاب المواصلات العامة، مراجعي الدوائر الحكومية، لَبِنات الطوابير في المشافي وأمام المخابز، مستحقي المعونات وبرامج التأهيل، مشاهدي مسلسل الساعة الثامنة، من تخاطبهم المذيعات بأعزائي المستمعين عزيزاتي المستمعات، مستخدمي الهواتف العمومية.

لا يغفل أي كان ولو لوهلة وجود ذاك الحشو، ولكن الأعين تستسهل إسقاطه. هو موجود ولكن غير مرئي، غير متعيّن تماما، حشو لا يستدعي التمعن ولا محاولة التدقيق فيه وحفظ ملامحه.

لا يعرف أحد في المصرف مثلا أن في وجه عاملة النظافة في دورات المياه عينين زرقاوين، كأن عين الله رسمتهما من أزرق سماء بعيدة لا يعرفها بشر.

يرى الناس أثر الحشو ذاك دون أن يروه، لذلك يرى الموظفون والموظفات أثر العاملة في الحمّامات ولا يرونها. وبعد حين اعتادوا حتى أثرها وما عادوا يلاحظونه. تظهر فقط في أذهانهم حين يتعثّرون بشيء ناقص، بول متروك على الأرضية الرخامية، أو بقعة دم على ورق حمام خلّفتْه موظفة أنهكتها عادتها.

14

ضحايا ليل هيفاء كانوا أوضح من ضحايا نهارها، فالمدينة وأهلها يعرفونهم ويعرفونهن، كانوا العاملين في البرامج الإذاعية الستة التي تذاع وقت إذاعة برنامج «هاتف عمومي». ويمكن استنتاج أن هيفاء استولت على كل المستمعين والمستمعات في تلك الساعة، وبات أولئك العاملون في البرامج المتزامنة يصيحون في واد يباب لا يسمعهم فيه أحد، واستغنى عنهم مشغّلوهم أو انهار اعتدادهم بأنفسهم حين علموا أن كل الآذان ومؤشرات الراديو تتجه صوب الإذاعة الأولى وبرنامجها الجديد الشهير، حين يبدؤون هم بالترحيب بالمستمعين.

وهذا ما حصل بطريقة أو بأخرى، فرأس مال البرنامج الإذاعي حفنة الآذان التي يجتذبها إليه. وخلال إمساك البرنامج بتلك الآذان تَدُسّ الإذاعة فيها الإعلانات التجارية عنوة، ليدسّ المعلن في جيب الإذاعة الأموال. وكلما تناقصت الآذان، تناقصت الإعلانات حتى تموت ساعة البث تلك ويغلق الميكرفون من أمام فم المذيع أو المذيعة ويغدو دون عمل.

الرهان بسيط، اجذب المستمعين والمستمعات، وحافظ على آذانهم طوال فترة برنامجك، ومتّعهم حتى يحتملوا الإعلانات السخيفة ويستسيغوا تجرعها مخففة بمشروبك اللذيذ الشهي، ستضمن حياة برنامجك وتضمن استقرار مال مرصود في رصيدك في المصرف كل حين.

ومع كل هذا أبق أذنيك مشرعتين على كل منافسيك على ساعتك الإذاعية تلك، احذر من رفاق المهنة ورفيقاتها، هؤلاء خصومك الأولون.

لا يمكن الزعم أن هيفاء أدركت كل هذا بهذه الطريقة الآلية، ربما هي استشعرته أو لم تعبأ به أول الأمر، ولكن ذلك لا يعني أنها لم تنتهج سبيل النجاح هذا، وسبيل النجاح لا يصبح سبيل نجاح حتى يشقّه أحدهم أو إحداهن، وهذا ما حصل مع هيفاء، فقد جذبت كل الآذان إليها في تلك الساعة، ومع دخول برنامجها شهره الثاني كانت موجات الإذاعات الأخرى كمعسكر صحراويّ خلَّفَه جيش مهزوم، أما الإذاعة الأولى فكانت كميدان عام يحتفل بالنصر.

هل يمكن اختصار الأمر بهذه الطريقة؟ يمكن، ولكن هناك الكثير ليقال أيضا حول الكيفية البطيئة لحدوث الأمر، أو لتساقط الضحايا.

كانت من بينهم مذيعة، وكان برنامجها شهيرا، من تلك البرامج التي تصمت عما تود قوله ولا تقول إلا ما حوله، برنامج إيحائي كامل، مليء بالتردد والتنهيد والآهات والغزل الرخيص في أغلب

الأحيان، كان تعويضا عن نقص كثير في حياة المستمعين والمستمعات. واحد من تلك البرامج الحمراء.

قيل إن البرنامج كان وسيلة تعارف وتواصل تديره مقدمته، طبعا يبدأ الأمر بتواصل وتعارف ثم يمضي إلى مساحات أخرى، والبرنامج مغلف بشائعات كثيرة ودخان لا شك بناره، ويكفي أن يمر مؤشر المذياع بموجة الإذاعة تلك لجزء من ثانية حتى تتسلل الريبة إلى أذن المستمع أو المستمعة وعقله.

كان كل شيء في البرنامج يحيل إلى أشياء أخرى ليس الهواء مكانها، إلا أن ذلك لم يكن يعني أن البرنامج متروك مهجور، بل هو ككثير من الأخطاء المحرجة، يتكاثر مرتكبوها تحت غلالة من خفاء، ولذلك كان للبرنامج ومذيعته جمهور واسع ولكنه سائل صعب التحديد، لا أسماء حقيقة ولا مجاهرة بمتابعته أو تندرا أمام الأصدقاء بما ورد فيه.

والحقيقة أن هذا النوع من البرامج الإذاعية «الحمراء» منتشر بقوة، ولكن بدرجات متفاوتة من الوضوح والصراحة والجرأة، والأهم أن العمر الافتراضي لتلك البرامج يكون قصيرا غالبا، تعيش بضعة شهور قبل أن تتكاثر المشاكل وتوغل في الإفصاح والإسفار، والمدينة لا تحتمل برامج كتلك، ومذيعة البرنامج كانت وكأنها تراهن على قدرتها على استجلاب أكبر حنق على الإذاعة والقائمين عليها في أقصر وقت ممكن، وبالتالي ساهمت هي في جعل برنامجها مهددا، وخذلت جمهورها الذي انتظر جرأتها طويلا، ولكن جمهورها وككل من استمعوا إلى ساعة متواصلة من برنامجها أدركوا أن ما تفعله خطير ولا يمكن الدفاع عنه بل تسهل إدانته كل لحظة.

أما الضربة القاضية فكانت حين سمع الناس صوت هيفاء على الإذاعة الأولى ووجدوا فيه كل شيء، وسمعوه تحديدا في الوقت عينه الذي يذاع فيه البرنامج الأحمر ذاك.

حينها بدا وكأن أحدا ما أنقذ صاحبة البرنامج الأحمر من الوصول إلى دركها السحيق، وأنقذ المستمعات والمستمعين من الهبوط معها، وأنقذ مراهقين ومراهقات كان يمكن أن يكشف أهلهم أنهم يتابعون برنامجها، وأنقذ فتيات بائسات اعتقدن أن اتصالا على البرنامج الأحمر سيشعل نورا يهدي الفرسان إلى قلاعهن، وأنقذ ساعة الليل تلك من اضطرابها وأعاد إليها السكينة.

بقية البرامج التي أجهزت عليها هيفاء ببرنامجها كانت برامج تنفيس وتفريغ وأغان، من بينها برنامج إذاعي يطلب فيه المستمعون أغنيات تعن لبالهم. هذا النوع من البرامج كان في طريقه إلى الانقراض، فالوصول إلى الأغاني بات أسهل بكثير من أي وقت مضى، على الأقل أسهل من الاتصال بإذاعة طلبا لأغنية وانتظارها بين زحام الأغنيات. يكفي البحث عنها في أي موقع غنائي، ويمكن أن يحتفظ أي مستمع أو مستمعة بمكتبة موسيقية كاملة في مشغل موسيقي صغير يضعه في جيبه.

كان ذاك النوع من البرامج وسيلة تواصل أيضا بين فئة قليلة من المستمعات والمستمعين، ولا يقصده المتصلون طلبا للاستماع بل لإيصال رسائل وبناء صداقات وعلاقات إذاعية. ولهذا النوع من البرامج المهددة بالانقراض جمهور وفيّ متناقص، وفيّ للعلاقات

المنسوجة حول الأغاني، جمهور تلك العلاقات وليس جمهور البرنامج فعلا.

أما برامج التفريغ، وكانا اثنين أو ثلاثة في تلك الفترة، فتقوم وتقتصر على اتصال الناس بالمذيع أو المذيعة ليعرضوا مشاكلهم وأحزانهم وما يجري معهم من أحداث تتركهم حيارى مستائين بحاجة ليد عون ومساندة، فيطلبوا المشورة أو النصح ممن لا يرجو من كل برنامجه سوى مرتبه الشهري أو حقوق رعاية من شركة تجارية.

كثيرون كانوا لا يرمون من اتصالهم على برامج الليل تلك إلا مجرد الاستماع لهم، كأن في استماع آلاف البشر الذين لا يعرفهم المتصل أو المتصلة تسرية عن النفس وتخفيفا من أوجاعها. أو دفعا بالقصة الشخصية الخاصة إلى فضاء عام واسع وبالتالي تثبيتها وإنقاذها من النسيان المحدق، أو أن الأمر كله مجرد رغبة في جعل الخاص عاما، حاجة أو شهوة خفية في التلاعب بالخصوصية، وهذا ما يحصل مرارا حين يحكي مستمعون قصص أصدقائهم أو أقاربهم، أحيانا يكون في الأمر رسائل مبطنة وتهديد متوار وإظهار للقدرة على الكشف والفضح. وفي أحيان كثيرة كانت البرامج تلك مجرد مساحة للضحك وتبادل النكات، ضحك في زمن تنازلت فيه الإذاعة عن عرشها ولكنها بقيت سيدة أولى في عالم كثيرين، أكثرهم ولاءً، مستمعو الليل.

أما ضحية هيفاء الأهم من بين مذيعي تلك البرامج فكان شاعرا، أو هكذا عرّف عن نفسه حين قدم إلى إذاعة منزوية في المدينة، وقال إن لديه فكرة برنامج سيضمن للإذاعة صعود بضع

درجات على سلم ترتيب إذاعات المدينة، وسيضيف إلى موجة الإذاعة آذانا أخرى مختلفة، وسيمنح الإذاعة قليلا من التميز والتفوق على الإذاعات الأخرى المشغولة بأساليب جذب المستمعين الرخيصة.

كان حديثه عن برنامجه أفضل بكثير من برنامجه، فقد قال إنه يريد ساعة على الهواء في وقت متأخر من الليل مع مهندس صوت مميز، وسيجعل الساعة تلك ساعة للشعر والأدب والثقافة، ساعة للكلام الجميل المفيد والضيوف اللامعين مع جمهورهم الذي يلاحقهم.

وبقدر ما كان الشاعر متماسكا وهو يطرح فكرته على مدير الإذاعة تلك وبقدر الثقة التي أبداها، كان البرنامج في ذهنه مضطربا مفككا، بل كان يريد بإلحاح كبير فعل شيء لا يدري ما هو تحديدا، ولم تكن لديه أي خبرة في مجال الإذاعة وعملها. كان يعتقد أنه قادر على فعل شيء لا يتوفر لديه أي عنصر من عناصر نجاحه، كان لديه اعتقاد زائف ولكنه قوي.

ومجموعة اعتقادات شبيهة كانت سبب شقاء الشاعر، فهو من صنف البشر الذين يعتقدون دون ذرة شك أنهم مميزون ويمتلكون ما يفتقر إليه الآخرون، وقادرون على فعل ما يفغر الأفواه ويظهر تجاعيد الجبهة. إلا أن أيا من البشر الآخرين غيرهم لا يشعرون بكل هذا، وهذا ما يجعلهم يعيشون دوامة من المواقف البائسة ومن العلل النفسية والاضطرابات الاجتماعية.

شاعرنا كان يعتقد أن سماع الناس لقصيدة كتبها سيكون أسعد يوم في حيواتهم، وأن مجرد دخوله إلى قاعة مليئة بالبشر كفيل بجعله

مركز اهتمامهم وانشغالهم، وأن جزءا من طرفة عين يصوبها نحو فتاة كافية لتسخين الدم في أوصالها وتقطيع أنفاسها وإشعارها أنها الأكثر حظا في الوجود. وأن مروره بمقهى يكفي ليشكر روّاده الحظ والأقدار التي جمعتهم به ولو ضمن دائرة نصف قطرها مئة متر.

لم يكن يحصل شيء من هذا طبعا، كانت تلك أوهامه التي لا تزعزعها النهايات المأساوية التي يخلص إليها. كان في عوز لمقرب أو صديق أو حبيبة تساعده على اكتشاف حقيقة إمكاناته وما لديه، ولكن دون جدوى، كان سوء فهم يسير على قدمين ورأسه يناطح السماء.

هو ممن يعتقدون أن مجرد وضع صفة شاعر قبل أسمائهم تكفي لنيل إعجاب فتيات وربما ما يزيد عن الإعجاب. كان يريد حياة تليق بموهبته وتفرده، حياة تصلح كرواية خالدة، مليئة بالعاشقات والمعذبات والأعداء والخصوم وألاعيب القدر وتقلبات الدهر ومفارقاته.

ولأن كل ذلك لم يكن متوفرا ولا يمكن أن توصف حياته بأوصاف تتعدى العادي والرتيب والوارد والممكن، كان يحاول خلق تلك الإثارة والتشويق، يدخل نفسه في ورطات عجيبة ويجانب أي رد فعل سليم بسيط بديهي طلبا في دفع الأمور إلى غير نتائجها الطبيعية، يجرب الفقر حينا ويدعي الغنى، يصرح لفتاة لا يعرفها بحبه في مكان عام، يقتحم المناسبات الاجتماعية الخاصة ويصرخ في الناس، ويعكر أجواء النخبة الثقافية بأي طريقة.

هذه الأخيرة على صلة ببرنامجه الإذاعي، فهو اعتقد مرارا أن هنالك تواطؤا من الأوساط الثقافية ضده، إما لأنهم يخافون من هالته وحضوره وتميزه ويخشون الدخول في منافسة معه، أو لأنهم

غير قادرين على إدراك قيمة ما يبدع وما يمتلك، ولذلك لم تنشر له أي جريدة أو مجلة أي قصيدة، ولم يتوجه إليه أي صحفي أو صحفية طلبا لمقابلة، ولم توافق أي دار نشر على نشر مجموعاته الشعرية، ولم يحظ بأي صديق أو صديقة من الشعراء والمثقفين والأدباء.

كل ذلك دفعه للاعتقاد أنه قادر على تصفية الحساب مع الجميع، وهو يحتاج فقط إلى منصة عامة مطلة ليقول كل ما لديه ويفصح عن حقيقة التواطؤ القائم ضد كل مبدع مثله. والأهم أن الشاعر كان يريد جمهورا ليعيش بينه وليتنفس من عبارات المديح والثناء والإعجاب التي تلقى عليه كل حين.

كانت موهبته الوحيدة هي إدارة الصراعات الشخصية العابرة في الأوساط الثقافية، كان يضخمها ويبث فيها معاني كبيرة متصلة بالأخلاق والأدوار والمعجبات والمعجبين، وقد أدرك جيدا أن الكتاب والأدباء والفنانين والشعراء لا يمتلكون القدرة على صد أي وسيلة صحفية أو إعلامية تعرض عليهم المشاركة في برنامج عام، ولذلك حضر قائمة ضيوف طويلة وأدار بينهم حربا ساحتها برنامجه وبذلك حظي بجمهور محب للمناوشات في العلن، وعرّف الناس باسمه بعد أن غاب في مجاهل التهميش والإنكار.

كان البرنامج وصفة انتقام، وما كان له أن ينجح أو يحظى ببضعة مستمعين لو أن مقدمه الشاعر استغل الأثير المشرع أمامه في قراءة ما يسميها أشعاره وأفكاره ونصوصه، بل خصصه لمقابلات كيدية لا تنتهي، ومعها يتقن إيهام ضيوفه أنه يقربهم من جمهورهم ويوفر لهم مساحة واسعة لقول ما يريدون ويروّج لهم وهذا ما كان

يشعرهم بالامتنان له، ويبدأ بتثبيت اسمه كواحد منهم، وكان مقابل ثناء ومديح لمجموعة شعرية لأحدهم يضمن ثناء ذاك على ما يقول وما يقرأ في نهايات البرنامج من أشعاره العجيبة، كان يبتزّ المديح على الهواء مباشرة، وكانت الوصفة ناجحة دون إفراط. وكان للمبتدئات والمبتدئين ومن لم ينالوا أي حظ من المتابعة والاعتراف مساحة حاضرة دوما في برنامجه، وشكّل تحالفا غير معلن مع ضيوفه وسلسلة لا تنتهي من تبادل الاعتراف والثناء والمديح. كان إثباتا عمليا على أن السخط والحنق دوافع بالغة الفعالية، وتخرج كل ما في جوف الإنسان من طاقة، حتى آخر قطرة منها.

بعد عدة حلقات شغل فيها ليالي الوسط الثقافي بات برنامجه معروفا، وبدأ يشعر بأنه يخرج من الظل إلى الضوء، حيث يعرفه الناس ويتعرفون إليه وكل ذلك على حساب زملائه المفترضين من شعراء وأدباء وفنانين.

والحقيقة أن الشاعر كان يشبه فئة محددة من الشباب الطامحين إلى دور في الأوساط الثقافية في المدينة، ولكنهم لا يملكون عدة ولا رصيدا يؤهلهم للحضور داخل الوسط ومنصاته ومواقعه المتقدمة، وما كان لأحد منهم أن يتقدم إلا إن حظي برعاية ما أو تبنته إحداهن أو أحدهم وقدّمه إلى الأمام، وهذا لا يحصل غالبا، كان يحصل مع بعض الفتيات مدعيات الاهتمام بالفن بكل أنواعه أو بالكتابة الأدبية والشعرية إلا أنه ما كان ليحصل مع الشاعر صاحبنا تحديدا.

وبما أنه لم يحظ بمن يأخذ بيده ويدخله إلى قلب معمعة الثقافية فقد تفانى في طرح هذه «القضية» كما كان يسميها لعدة حلقات.

باللغز واللمز والإشارة المبطنة يتحدث عن الاعتراف المفاجئ بالشابة تلك كشاعرة واعدة، ويمرر في حديثه تساؤلات عن المقاهي التي تجلس فيها ومن يشغلون الطاولة إلى جانبها، ثم يعبر إلى فوزها بجائزة ما ويفتش في سيرة لجنة التحكيم ويقلّبها عضوا عضوا. يمرر عبارات لا يتعنى حتى في تنميقها أو تخفيف حدتها.

«نحن محظوظون لأن كل شاعراتنا الفائزات يجمعن جمال الكلمة وجمال المظهر»، و«تتقدم الشاعرة الشابة ولمسات شاعرنا الأول بادية في مسيرتها وعليها»، «إن كانت مقولة «موت المؤلف» أسهمت في دفع النقد الأدبي حول العالم عبر مركزة النص والانشغال به، فإن مقولتي بـ» نوم المؤلف/ة» ستسهم في فهم الكيفية التي تتوزع فيها الحظوظ داخل الوسط الثقافي في بلدنا، كم نام وأين».

تساءل في حلقة سمعتها، ولم أتوقف عن الضحك ليلتها، عن الريبة التي يثيرها التقاط كاتب كبير معروف لكاتبة شابة ودفعه لها بكل السبل، في حين لا يثار أي لغط حول كاتبة عجوز تلتقط كاتبا شابا وتدفعه برفق إلى صفوف متقدمة بين المثقفين والشعراء والأدباء.

أغلب الظن أنه كان حانقا على أحدهم وإحداهن ليلتها. قال إننا نسيء فهم دوافع كبار السن وتحديدا السيدات ونفسر رغباتهن بمنطقنا الشاب، مؤكدا أن هنالك حاجات كثيرة تبحث عن تلبية وليست بالضرورة تلك الحاجات التي تخطر ببالنا.

قال إن اللغط حول الكاتب العجوز والشابة يثيره الحاسدون الراغبون من أقرانه، «أليست معظم نزاعات الأدباء والشعراء حول النساء؟!»، أما حالة الكاتبة العجوز والشاب فلا يحفل بها أحد ولا

تتحدث عنها قريناتها، «فالنساء مدعيات الاكتفاء، يحتملن أي شيء إلا اتهامهن بالحسد والغيرة».

كانت كل حلقة من برنامجه حفنة كلام ملغّم، من ذاك النوع الذي يتقنه المثقفون، وصاحبنا يرد عليهم بلغتهم. وبصراحة فقد كان محقا في كثير مما قال، وكان ينبغي التقاط الأسئلة المهمة من بين سفاسف حديثه. وما لفت نظري تحديدا هو حاجة تلك الأوساط لصفعة ما.

بالنسبة لي هنالك جانب مغر في محاولته كشف الوسط الثقافي وتعريته، تلك الفئة تبني سطوتها وحضورها ومصالحها على إثبات قصور المجتمع وعلله وأمراضه وكشف زيفه كما يقولون. ثم بعد ذلك يحظون بالتوقير والتقدير والإعجاب من مجموع الناس، أي المجتمع ببساطة.

كان ذاك الشاعر على شعبويته العجيبة حدثا مختلفا، وأرقا أسبوعيا لتلك الأوساط الهشّة. ولكن افتقاره للرزانة والقصد النبيل وظهور هيفاء، حرم المدينة من ليال صاخبة.

جاءت هيفاء في تلك الساعة واحتلتها، وسرعان ما اختفى برنامج الشاعر، لم يعد يستحق عناء مدير الإذاعة تلك في الرد على الاتصالات المتعاقبة المطالبة بإيقاف البرنامج المسيء لنخب المدينة ورموزها الأدبية والثقافية. لم يعد برنامجه يستحق خوض أي مناوشة، فهو دون مستمعات ولا مستمعين.

لا أوجع على مذيعة أو مذيع من تلك اللحظة التي يقول فيها «أعزائي المستمعين» وهو يعلم ألا أحد يحفل بما سيقول بعدها.

هذا ما شعر به منافسو هيفاء في تلك الساعة، ولم يسمح لهم اعتدادهم بأنفسهم بتغيير مواعيد برامجهم تجنبا للمنافسة، كان ذلك سيغدو إعلان هزيمة مبرما يتذكرونه في كل لحظة يواجهون فيها الميكرفون والساعة الدقيقة المضبوطة أمامهم في الاستوديو.

مكمن كآبة كثير من البشر هو في اعتقادهم أنهم تليق بهم حياة أكثر إثارة وأهمية من تلك التي يعيشونها.

كان الشاعر أحدهم.

وهيفاء تعرف جيدا نوعية البشر الذين يفاجأون بحياة أفقر بكثير مما تخيلوا وتمنّوا. وتعرف نوعية من أدركوا أن حياتهم ستظل أفقر بكثير مما تخيلوا وتمنّوا. وتدرك جيدا أن ما يُبقي الناس أحياء هو شعورهم بإمكانية التحسين والمضي إلى شيء أفضل مما هو واقع وحاصل. وحين ينعدم هذا الشعور، يتحولون إلى حال ثابتة رتيبة ساكنة يمكن اعتبارها موتهم الأول.

عندها يغدو كل شيء متوقعا، حتى غير المتوقع والمفاجئ تهضمه الحياة فيغدو عاديا. فالتحول المأمول والمنتظر والأحداث الفارقة لا تكتسب قدرتها على تغيير حياتهم، إلا إن كانت الرغبة بقدومها والأمل به متوفرا وحيّا. بعد موته الأول يغدو الإنسان أرضا ميتة لا تنمو فيها أي بذور ولو دسّت بباطنها كل يوم وتعهدتها السماء بماء صبيب.

15

هل منحتُ ضحايا هيفاء حيزا أكثر مما يستحقون؟!

لا أدري!

هل هنالك طريقة أفضل، لمعرفة إنسان، من التعرف إلى ضحاياه؟

16

كيف يؤثّر صوت هيفاء على حياتها العادية وأمورها اليومية العابرة؟ يمكن الجزم أن هذا السؤال لمع في أذهان كل من سمعوا صوت هيفاء أو سمعوا عنها، ولم ينسوا أن لهيفاء حياة خارج سماعة هاتف المصرف واستوديو الإذاعة.

انحصر التعامل اليومي والمتكرر لهيفاء «المقطوعة» في زملاء العمل وزميلاته في المأوى أول الأمر ثم في المصرف، وبعض الباعة والعابرين الذين تضطر لسؤالهم سؤالا عابرا أو الإجابة على أسئلتهم العابرة، وهيفاء سكوتة في الغالب ولا تميل إلى بدء حوار مع أي كان.

هيفاء تنطق بنصف فم غالبا، ولا تترك الصوت يجري من فمها على سجيته بل تضبطه وتحدّه، وحين تريد أن ينبعث بكل طاقته وبهائه تتركه ليفعل، وهذا ما قلل إلى حد معقول نظرات الانشداه المؤلمة التي كانت تواجه بها حين تترك صوتها يفعل أفاعيله، فتلك النظرات والشهقات كانت في جزء كبير منها استغرابا واستنكارا لصدور الصوت السحري من تلك الواقفة أمامهم، كأن تلك الشهقات

والنظرات إنما هي إعلان بحث واستفسار عن المكان البعيد الذي صدر منه الصوت، البعيد بالتأكيد عن هذه الواقفة أمامهم.

ونادرا ما كان الإعجاب بصوتها صرفا متحللا من شهوة البحث عن جمال مكتمل ومادي، يتناسب فيه جمال الشكل والجسد مع جمال الصوت.

كل هذا يفسر جزءا من حالة صوت هيفاء وعلاقة المستمعين معه، أما الجزء الأهم فهو إدراك هيفاء سحر الوسيط، بل سحر الصوت القادم عبر وسيط، وفي حالتها كان سماعة الهاتف وسماعة المذياع.

اكتشفت هيفاء سريعا أن لسماع صوتها عبر وسيط تأثيرا مضاعفا أضعافا كثيرة عن سماعه مباشرة، كأن الوسيط يضفي على الصوت طاقة ما تزيد من تكثيفه ودفعه، أو أن صوتها بحد ذاته صوت خلق ليسري عبر وسيط فيزداد عبره سحرا على سحر.

هيفاء لا تمل من التفكير في علاقة صوتها بالوسائط تلك وأثرها على المستمعين لها عبرها وفعلها بهم، ولأنها عملية صريحة مع نفسها أضافت إلى تفسيرات وقع السحر على من يسمعونها عبر وسيط، أنهم يسمعون صوتها دون أن يروها، يسمعون صوتها خالصا مصفّى نقيا من كل ما تسببه رؤيتها من إرباك يشتت سحر الصوت أو يشوّشه.

يضاف إلى كل هذا أن صوت هيفاء بعد أن توالت الاعترافات بسحره وجماله وروعته، ليس كصوتها قبل تلك الاعترافات، كأن

الاعتراف به منحه سحرا مضاعفا أو ألبسه إكليل تفرّد وندرة أو ألقى عليه غلالة لامعة زادت وضوحه وبروزه.

وبعيدا عن المقاربات الفنية هذه لا يمكن إنكار أن الاعترافات المتواترة كانت تمنح هيفاء ثقة وجرأة وحسّ تجريب ومغامرة، فمن كانت تتكلم بنصف فم باتت تناوش مستمعيها بإلقاء جملة لتراقب أثرها عليهم، مجرد جملة مضبوطة مقصودة تلقيها هيفاء في ردهة المصرف كفيلة برفع جميع الرؤوس ومطّ جميع الأعناق، بل وإشراع اليدين ولو كن يحملن من النقود ألوفا مؤلفة.

أهم اعتراف بصوتها، كان ذاك الذي أطلقه مدير المصرف، فأخرجها صوتها من مأوى العجزة، ثم غدا مفتاحا لكل الفرص الأخرى، ورياحا هادئة حملتها إلى قمرة الهاتف العموميّ، سعادتها القصوى وبابها إلى عالم آخر وحياة جديدة.

وهيفاء منذ بداية عملها في المصرف في قسم استعلامات الهاتف، أشرعت مع صوتها مساحة متزايدة من الحرية في التجريب والصقل والتمرين، فكان كل اتصال تتلقاه أثناء عملها مساحة لتطوير قدراتها الصوتية واختبارا عمليّا يمكنها من رصد فعالية صوتها وأثره.

ومما أدركته هيفاء مبكرا أن تحكّمها في مقدار السحر المندفع مع الصوت هو مدخلها لإحكام زمام صوتها واستخدامه كما تشاء، فشرعت أول الأمر في الإبانة عما لديها بتدريج تصاعدي آسر، كأنها تستدرج أذن السامع إلى فخ أليم، فخ محفوف بكل رغبات النهل والالتقاط والتشبّث. واكتشفت هيفاء أيضا أن سعيها لتحسس

أبعاد صوتها وفضائه كان اكتشافا لممكنات تجهلها، كأنها في بحثها عن حدود الصوت تتثبّت من عدم وجود حدود، بل مساحات تتفشّى وتتفتّح كبتلات زهرة متعالية مشبعة بندى لا ينفكّ يمنح صورتها أبعادا أخرى وتقلبات مربكة.

وفي عوالم البحث حول الصوت وعنه والتدريب الذاتي المستمر بدأت هيفاء بشراء كل ما يعينها على اكتشاف هذا الكنز الساكن في مكان ما في جوفها ويتفلّت كل حين. وسرحت بين الكتب والأفلام ووسائط سمعية عديدة، ووجدت بذلك شاغلا آخر يملأ ساعات وحدتها اللئيمة.

هذا كان الشق التقني من علاقة هيفاء بصوتها، أما الشق الآخر، ويمكن وصفه بالنفسي أو الروحي، فكان متصلا بتلك اللحظة التي وهبت فيها هذا الصوت، ومن أين جاء ووضع داخلها؟ كيف كانت «تنظر إلى صوتها» بل كيف كانت تسمعه؟

تدرك هيفاء فرادة حالتها، فصوتها لم يبدعه جين نقلته إليها أمها الخرساء، طبعا هذه مفارقة هيفاء الأثيرة. وما كان يمكن لكل هذا السحر أن يحمله حيوان منوي منطلق من جسد العجوز الكريه المقعد.

هذه الفرضية كانت تذكّر هيفاء بنكتة الخالة السوداء، وتزيد الشكوك حول هرب والدتها الخرساء مع أحدهم، وأحدهم هذا ربما كان ذا صوت بديع ورّثها إياه، ولكن الفرضية هذه ليست أقل تداعيا من أية فرضية أخرى، فلو كانت هيفاء ابنة الخرساء وصاحب الصوت الجميل فلماذا لم يحملا كتلة اللحم والبكاء معهما حين هربا؟! أم أنها بنت أحدهم آخر غير ذاك الذي هربت معه أمها؟

عند هذا الحد من التفكير تتوقف هيفاء وتمسك زمام خيالها، لأن الخالة، وعند أي حديث عن امرأة وأكثر من رجل واحد أو اثنين على الأكثر، تقفز إلى خيال هيفاء كفاصل إعلاني سمج يقطع عليها مشاهد اللمس الأثيرة في الأفلام السينمائية.

واللمس هنا لا يعني بأي حال المشاهد الحميمة المعروفة المبتذلة الدارجة، اللمس الذي تعنيه هيفاء هو ما قصدته وهي تعترض على متصل في الحلقة الثامنة عشرة قال إن الحاجة الجسدية بين الجنسين متصلة كلها بالعلاقة الجنسية والدافع الجنسي.

على الأغلب لم تكن الحلقة مخصصة لموضوع قريب مما أثاره المتصل، ولكنها طريقة هيفاء في الاستطراد وتساهلها مع تحريك المستمعات والمستمعين للحلقة وحريتهم في جذبها إلى أي مساحة يحبون الحديث فيها. خلال الاتصال قاطعت هيفاء المتصل بلطف وتمنّت عليه ألا ينزلق إلى التعميم وقالت: «إن قناعتك عزيزي بأن كل ما يحتاجه الجسد من جسد آخر متصل بالعملية الجنسية هو افتراض شخصي، وأعرف أن كثيرين يفكرون مثلك. حاجة اليد ليد أخرى تلمسها ليست متصلة بمسار تطور الأمور إلى فعل جنسي، قد تكون حاجة عضوية خاصة جدا باليد، أو الوجه أو الظهر، الحاجة إلى اللمس شيء يسقط عند ربط كل حاجات الجسد بالفعل الجنسي. أعترف لكم أحبائي المستمعين بأنني لم أقرا هذا في كتاب أو بحث ولم أسمعه من أحد، ولكنه رأي أقترح عليكم التفكير به.

في أحيان كثيرة تظهر حاجتنا لأن نلمس من شخص لا نرغب به كشريك في الفعل الجنسي. هنالك حاجة خاصة ومهمة للمس

تتعلق بكل عضو على حدة دون ربط كل شيء بالجهاز التناسلي كما يحب الكثيرون.

هل تريدون مزيدا من الصراحة؟ نعم، فهذا ما نلتزم به في هاتفنا العمومي. يمكن لكثيرين ممارسة فعل جنسي كامل دون أي إشباع لحاجة الجسد والأعضاء للمس. وقد تكون الحاجة للمس ألح وأهم عند كثيرات وكثيرين من حاجاتهم الجنسية.

أعرف أنكن وأنكم تدركون ما أقول تماما. لا تستهينوا باللمس. وأرجوكم أرجوكم تجنبوا التعميم والجزم في هذه الساعة، نحن هنا لنعرف أنفسنا أكثر، ولسنا هنا ليطرح كل منا ادعاءاته كأنها معلومات ثابتة.

اسمحوا لي بجملة أخيرة: ما الذي يبقى لنا حين تشيخ أجسادنا غير القدرة على لمس من نحبهم والرغبة في لمسهم إيانا؟!»

17

تهوية البيت الجيدة لم تمنع إصابة عبّاس بأعراض شهيرة لدى المتعاملين مع الطلاء ومحاليله بكثرة، أي ذاك الخمول وتلك البلادة في الذهن والنطق، شيء أشبه بتخدير خفيف، يضفي مسحة باردة على وجهه وردّات فعله.

منحته تلك السحنة سلاما وهدوءا انعكس على المتعاملين معه، فيعتقدون حين رؤيته أنه من النوع الذي لا تفلح معه محاولات الدردشة أو تبادل أي حديث، ويبدو جليا حين إمعان النظر في سحنته أنه غير مرحب بالحديث دون أي عدائية أو اضطراب.

ولأن علاقة عبّاس والطلاء سرية، لم يتمكن موظفو المصرف وموظفاته من إدراك أن البلادة المضاعفة والنعاس الخفيف هما عرض أضيف إلى وجه عبّاس وسلوكه، بل اعتقدوا أنه على هذه الشاكلة أصلا. وكالعادة لا تستطيع العيون التي تألف مشهدا مكررا ملاحظة التغيير الطفيف المتراكم مع الوقت.

كان يمكن لموظف غادر المصرف منذ سنوات وشاهد عبّاسا فجأة في الشارع أن يتعجب ويقول ما معناه إن عبّاس قد تقدم في

العمر سريعا، أو أنه ربما مر بمصيبة طبعت تلك السحنة المحايدة على وجهه ومحياه.

يبدو أن لا مفر هنا من الحديث عن خارج عبّاس قليلا، عن شكله، من باب الدقة والمساواة.

لو ألبسنا عبّاسا إحدى بدلات مدير المصرف، فلنقل تلك الكحلية المخططة، مع القميص الأبيض بأزرار كمّيه المعتّقين، وربطة العنق النبيذية بورودها الذهبية الصغيرة التي لا تميزها إلا عين مدربة في دنيا الأزياء، مع الحذاء الأسود نصف اللامع، مع الجوارب الحريرية. لو ألبسناها لعباس لارتبكت صفوف الزبائن والمراجعين في المصرف، تحديدا تلك التي تكثر فيها النساء .

عبّاس بتجرد يقع ضمن صنف من الرجال ستقول امرأة تنظر إليهم بعد عدة دقائق إنهم ربما يكونون وسيمين. إلا أن هذا الرأي لم يكن واردا في حال عبّاس، فهو أشبه بلوحة دون إطار ومعلقة في ورشة لتصليح الشاحنات.

قد لا تحتاج المرأة الجميلة لإطار يبرز ما لديها ويركّزه، إلا أن الرجال في غالبيتهم بحاجة لإطار كهذا. خاصة أن الحكم ذا القيمة على أشكال الرجال يطلب غالبا من نساء، ويأتي الشكل في مرحلة متأخرة قليلا من اهتمام المتطلعات والمقيّمات، أو على الأقل يدّعين ذلك. وفي حالة عبّاس هنالك الكثير مما يستهلك طاقة التقييم قبل الوصول إلى الشكل والهيئة.

وضع عبّاس لوسامته إطارا اضطراريا في العشاء السنوي، حين ألزمه مدير المصرف بشراء بدلة لائقة. بدا وسيما كأي رجل

أربعيني بكثير من الشيب، دون وزن زائد ولا ترهلات، وتسريحة كلاسيكية جانبية لا يعرف عبّاس وحلّاقه غيرها، وذقن خفيفة محددة وشاربين أكثف منها قليلا، ووجه توزعت أعضاؤه بهدوء دون اقتراب منفّر ولا تباعد مزعج. ومع كل هذا وقفة مشدودة تظهر رحابة صدره وحسن تعليق يديه، وربما التعلّق بهما على صفحة الصدر الواسع. تلك الوقفة تحديدا هي محصلة السنوات الطوال من الوقوف كل يوم لتنظيم جريان الناس في أوردة المصرف. كان ذاك الإطار في ذاك المساء إضافة نوعية إلى الدور العجيب الذي اختارته الأقدار لعبّاس ليلتها.

18

طوال حياتها، ربما كانت هيفاء في عوز مرير لكثير من الأشياء بل لكل شيء، إلا الوقت. كانت تعاني من فائض وقت هائل، والوقت هنا لا يعني ما يسميه الناس وقت فراغ، بل هو مرحلة متجاوزة لكل أنواع الفراغ ويفيض عنها.

هذا الفائض المرعب كانت تعيشه وحيدة، وتحالف الوقت الفائض والوحدة، هيّأ لهيفاء ساعات وأياما وأسابيع وأشهرا شاسعة من التفكير الهادئ المتأني.

ولأن هيفاء وفي كل مكان تحلّ فيه ككيان مادي تبدو وكأنها إضافة زائدة لن تغيّر إزالتها شيئا من مسار الأشياء، ولأنها متوارية بل مستبعدة من عيون وملاحظة الحاضرات والحاضرين، ومسقطة من المشهد والاعتبار، لكل ذلك كانت تشغل موقع المراقب عن كثب لكل ما يجري حوله، مراقب خفيّ وراصد متيقّظ لكل شيء وبصمت يزيد من كفاءة الأداء وحرفيته.

أما وحدة هيفاء فكانت المعمل الذي تعالج فيه كل ما رصدته ولاحظته وراقبته من مشاهد وأحداث وأوجه وكلمات وأفكار وأحوال.

كان دور المراقب يهيئ لها كما مهولا من المواد الخام التي تنتظر المعالجة والتحليل والفحص في معامل الوحدة، وكانت تلك المعامل تشرع أبوابها على أقصى اتساعها في المساءات وليالي القلق وصباحات أيام العطل.

ولكن هل كان كل ما تعايشه هيفاء وتراه كافيا لشغل معامل وحدتها طوال الوقت الطويل القاتل؟

كلا

ولذلك أدركت هيفاء منذ خرجت من مأوى المسنين أنه لا بد لها من البحث عن وسائل وأساليب وحيل تعينها على الانتصار في معركتها مع الوحدة.

يبدو الاحتمال الأكثر ورودا في حالات كهذه هو البحث عن صديقات أو أصدقاء تزجي معهم أوقاتها الفائضة، ولكن هيفاء لم تفكر يوما في هذا الخيار، ولم تبحث عن صديقات أو تسع لكسب صداقة أحد، كانت تعاني مشكلة ثقة مع كل شيء إلا نفسها، وهذا مبرر في حالتها «المقطوعة» حتى عن تجارب ثقة مشجّعة.

ولا يعني ذلك أنها لم تعقد صداقات ساعية أو دقائقية في مقهى أو مطعم أو متنزه، كانت تجلس مع غرباء في الأماكن العامة ثم تنساهم بمجرد رحيلها، تحديدا أولئك الذين يشبهونها، وحيدون

ووحيدات يواجهون ساعتين أو أكثر ويحاولون الخلاص منها بأقل الخسائر. ربما كنت أنا الاستثناء الوحيد في صداقات الغرباء تلك.

ماذا عن الأكل؟ ألا يمكن أن يكون الأكل والانشغال في إعداده والتفنن في طلب أعز أصنافه، مبعث انشغال مهم لامرأة بحجم هيفاء وحالتها.

هذا ما قد تقود إليه الاستنتاجات المتسرعة – والتي يثبت في حالة هيفاء انعدام صوابها على الأغلب–، فسمنة هيفاء والطبيعة الموضوعية لشكلها، قد يفتح أبواب جنة الأكل لها، تلك الجنة المشتهاة عند كل أولئك الفتيات والنساء اللواتي وُهِبْن ما يخشين ضياعه ويكدحن في الحفاظ عليه، ولكن الجنة لا تغدو جنة إن كانت في المتناول، وهذا حال هيفاء مع الأكل، فقد كانت تأكل كما تتنفس دون أي رغبة أو اشتهاء أو متعة إلا في حالات نادرة، وكانت سيدة الأكل السريع، تشتريه من أي مكان وتأكله دون تركيز وبالكاد تتذكر أكل الفاكهة أو تعبأ بشرائها، أما الحلويات بكل أصنافها فقد كانت مصدر طاقة رخيص ومتوفر ويريح هيفاء من عناء الوجبات الجاثمة في أطباق.

هيفاء تكره الموائد، لأنها تحيل إلى ما تفقده؛ الصحبة والعائلة. وكرهها للموائد جعل موقفها من الأطباق وأدوات تناول الطعام كلها محسوما. والخلاصة أن علاقتها مع الأكل كانت عملية نفعية مباشرة دون أي ادعاءات جمالية أو ذوقية، ولم تكن هيفاء تجد أي مبرر لكل الأوهام التي تبثّها إعلانات الأطعمة ولا تجد كتب فنون الطبخ إلا مضيعة للمال وإتلافا للأشجار والنساء.

أما أهم وسائل هيفاء لضرب تحالف الوقت والوحدة، فكانت تجهيز بيتها الصغير بكل وسائل الترفيه المعروفة، وأهمها تلفاز ضخم تحتل شاشته واجهة غرفة المعيشة، وجهاز استقبال يحوي من المحطات ما تحتاج هيفاء ليومين كاملين لمجرد المرور عليها والتوقف لخمس ثوان عند كل محطة، وهذا ما جعل هيفاء خبيرة تلفزة، وتمتلك حصيلة معرفية هائلة، في شق كبير منها سياسية وإخبارية، بالإضافة إلى المعرفة بالدراما والوثائقيات المطوّلة والرياضة والاقتصاد والفنون بشكل عام، وكانت تحب بشكل خاص القنوات المتخصصة، وتضعها في ترتيب متقدم على قائمة المفضّلات.

أما الأفلام السينمائية فكانت آلية مستقلة بذاتها، وهيفاء ترفض الاستسلام لما يعرض منها تلفزيونيا، ولعل الصداقة الوحيدة الرتيبة التي اعتمدتها هيفاء كانت مع بائع أقراص الأفلام عالية الدقة.

فبعد وصولها إلى نهاية شارع ركب من جهة الغرب تتعجل في الانحدار مع الدرب صوب الكنيسة، وبعد أن تنظر إليها مليّا دون شعور مميز تكمل طريقها المنحدر لتمر قبالة المقهى الذي يواظب عبّاس على ارتياده، لم تكن ترى المقهى ولا تنظر إليه بل تواصل سيرها المتأني والملاصق للسيارات والحافلات التي تعبر الطريق الضيق، وبعد أن تقطع تقاطعين مستعينة بإشارة الشرطي الكسول المشغول بشاشة هاتفه المحمول، يراها بائع الأفلام من خلف زجاج محلة البسيط فيتهلل وجهه.

كانت تمضي عنده قرابة ساعة أو أكثر في الحديث عن الأفلام التي اشترتها في الأسبوع الفائت، وتناقشه في مقترحات أفلام

الأسبوع المقبل، ولا شك أن معرفة البائع بالأفلام تطورت بسبب هيفاء، وكان يقتبس كلامها حرفيا ويعرضه على الزبائن الآخرين حين يقترح عليهم أفلاما ليشاهدوها، ومع الأيام باتت ساعة شراء الأفلام موعدا سينمائيا أسبوعيا يجمعها بالبائع الشاب، ولعله كان الشخص الوحيد الذي يتهلل وجهه عند رؤية هيفاء.

لا يمكن الجزم أن أسارير البائع كانت تنفرج لرؤية هيفاء وحسب، فهو يعلم أن رؤيتها تعني أن عشرة أفلام على الأقل ستشترى ودون مماطلات مملة في سبيل التخفيض، بالإضافة إلى المعلومات الثمينة التي تقدمها هيفاء له كل مرة، بل إنها هي من كانت تمده بمعلومات لتصنيف الأفلام، ذاك يصلح للعشاق، وهذا يداوي جراحهم، هذا لا يصلح للمشاهدة مع العائلة، وذاك سيحبه متسكعو المدينة، أما هذا الفيلم ففلسفي عميق، ومن سيحب هذا الفيلم بالتأكيد سيحب ذاك وذاك معه، وهذه سلسلة منقولة عن روايات، وهذا أفضل ما قدمته تلك الممثلة، وهذا حائز على جوائز كذا وكذا، وهذا رشح لجوائز عديدة ولكنه لا يستحق. كل تلك المعلومات التي يدونها البائع سريعا زادت من تمكنه من عمله وتفرده بين بائعي الأفلام في المدينة وما أكثرهم. بل وساعدته ملاحظات وإشارات خاصة في استمالة فتيات وشابات يأتين لشراء أفلام.

دون أن تدري كانت هيفاء مصدر بسمات الإعجاب وعبارات المديح التي تهمس بها الفتيات للبائع حين يحدثهن بعبارات هيفاء عن ذاك الفيلم الحميم، وطريقة المخرج البديعة في تحريك الكاميرا عند كل لمسة وهمسة من البطل لحبيبته، أو قدرته على إخراج فيلم

إثارة وحركة بكاميرات كلها ثابتة. أو اعتماده على وفرة المرايا في بهو الفندق لرصد فزع الزوجة من لقاء رجل الأعمال الذي سينتهي بوظيفة وليلة آثمة ثمنا لها. أو ذلك الجهد البديع في توسيع إطار الصورة وإظهار ضآلة الصبية الجميلة في شوارع المدينة الشاسعة. أو عبقرية كاتب السيناريو الذي اختار إمساك الشاب برسغه كأنه يتحسس قيدا في كل مرة يتحدث فيها عن زوجته.

بلا شك ستغفر هيفاء للبائع كل ذاك الاستغلال غير الأخلاقي لأفكارها وملاحظاتها، لأن انهماكه في الحديث معها كان مصدر سعادة وحيدا في فترات طويلة من سنواتها الأخيرة، ومعه أدركت هيفاء لأول مرة أن من تتحدث إليهم يميلون لإغلاق أعينهم والتركيز في كل كلمة تقولها كأنهم يصغون للحن بديع قادم من مجاهل بعيدة.

ولعل أهم ما أضافته الأفلام السينمائية على حياة هيفاء إلى جانب تبديد الوحدة والوقت الفائض، كان تمكينها من تكثيف الأفكار. أدركت أن ميزة السينما الأهم هي التكثيف، حين تخلّص الحكاية من فصولها المتطاولة وتشذّبها وتوضّبها بطريقة تمنحها معنى مركّزا وتخط لها مسارا واضحا. وتخليص الحكايات من استطراداتها جعل هيفاء أكثر دقة في التعامل مع ما يجري حولها، وأقدر على وزن الأمور ورؤزها وتحديد حجم الانشغال والانهماك النفسي والعاطفي الذي تستحقه، ولذلك لم تكن تعاني من مبالغات فظّة ولا يصحّ إطلاق وصف «عاطفية» عليها. كانت كل الجماليات العاطفية والنفسية المزدحمة على شريط سينمائي تزيدها عمليّة وتفهّما. والحقيقة

أن كل هذا ما كان ليدرك لو ظل حبيس نفس هيفاء السكوتة الكتوم، إلا أنه أسفر عن نفسه في حلقات برنامجها، واستفادت هيفاء أيما استفادة من ثقافتها السينمائية في كتابة مقدمات وخواتيم حلقاتها الإذاعية، والتأليف الفوري لقصص مكثفة عابرة ترسلها عبر الهواء إلى من يظنونها حقائق راسخة.

19

مع دخول «هاتف عمومي» شهره الرابع، أصبح نجاحه قصة عامة، وقوائم الإعلانات تتزاحم حوله، وفضاءات المدينة لا تخلف موعده. نجاح قياسي في عالم إذاعات رام الله إن لم يكن الإذاعات في المنطقة كلها، وبعدها بدأ التساؤل عن ذاك النجاح ينتشر، يتحدث به المعجبون ويؤرّق به المنافسون، أما المختصون والمحللون الإعلاميون فمن باب الرزانة والإيحاء بالعمق أخّروا انشغالهم بنجاح البرنامج لكي يؤكدوا على الفارق النوعي بينهم وبين العوام، فبدؤوا بالتساؤل وطرح الإجابات بعد عشرين حلقة تقريبا.

برأيي لم يكن ممكنا التعامل مع نجاح برنامج هيفاء بتفسيرات اعتيادية، يكفي القول إن صوتها كان ضمانة كافية ويقينية لنجاح البرنامج واستباحته الأثير وأخباره، صوتها وحده بصرف النظر عما تقول، «حتى لو كانت تقرأ أمام المايكروفون قوائم طعام المطاعم أو كتيبا إرشاديا لتركيب عربة أطفال أو تعازي صفحة الوفيات في الجرائد»، هذا ما أرسله لها معجب في رسالة إلكترونية، وطلب منها أن تقرأها، وفعلت. هيفاء ما كانت لتضيّع أي فرصة لتعميم مديح

صوتها وإذاعته، ولكن دوما على ألسنة الآخرين وبانسحاب كامل كأنها غير موجودة.

بالعودة إلى أسباب النجاح، وتحديدا التقنية أو الأدائية، بالتأكيد الموسيقى مهمة، من حيث الاختيار والتقطيع والدمج والتصاعد والهبوط، وبالتأكيد ما تقوله هيفاء بأفكاره وطريقة قوله مهم ومحوري لنجاح البرنامج، ولكن السحر كل السحر هو في الصمت، في الفجوة التي تتقن هيفاء توظيفها واستخدامها واستغلالها، صمت كامل حتى أنفاسها التي ينتظرها المستمعون وتسكب في آذانهم كإكسير سري، ستختفي في قلب الصمت المدروس بعناية.

هيفاء تترك وقتا حتى تختمر خيالات المستمعين وأفكارهم، تترك متسعا بين كل فكرة وأخرى حتى تضمن وصول فكرتها إلى غور عميق في دواخل المستمعين، لا تصل الفكرة وحسب، بل تستقر وترقد وتتفشى في سراديب النفوس وتملأها.

صمتها في هاتفها العمومي ينحكي فيه كلام كثير، صمت حيّ، حار وليس باردا، تماما كحرارة أي هاتف نضعه على آذاننا، حتى إن لم يتحدث أحد على الجهة الأخرى، ولكن حرارة ما تنبعث منه. صمت هيفاء كان كصمت أحبائنا حين يتصلون وتظل الكلمات عالقة ينقل حرارتها الهاتف الدافئ، أما صمت غيرها فكان صمت الهواتف الباردة، بمجرد وضع سماعة الهاتف على آذاننا نشعر بالبرد والخواء، ولا نحتاج أكثر من جزء من ثانية لندرك أن لاشيء في الجهة الأخرى.

كانت تخطط للصمت كما تخطط للكلام وتقول دوما بعد جولات صمتها على الهواء إنها تفتقد صديقة كانت تبادلها الصمت

أكثر من الكلام، لم تكن هناك أي صديقة، هي شخصية قصص هيفاء القصيرة التي تدعم أفكارها، قصص سريعة التأليف تكتسب قيمتها من حسن استخدامها وتوظيفها.

أمر آخر مهم، لم تكن هيفاء تتحدث في الشأن العاطفي الصرف بكثرة، مع أنها كان لديها امتياز الحديث فيه بجرأة وراحة ووضوح بخلاف غالبية المتصدّين له عادة. وهذا الامتياز مكمنه المسافة التي تفصل هيفاء عن الشأن العاطفي وتجعلها لا تتطور نفسيا وشعوريا حين تسمع آراء الناس وحين تحكم عليها وهي تروي حادثة أو تسمع أغنية أو تقرأ قصيدة، كانت بعيدة عن الانجرار إلى حالات تربكها فهي لا تعرف تلك الحالات.

إن كان الحديث عن الهجر يمكنها أن تقول ما تشاء فهي لم تعرفه يوما، ولن تؤثر تجربتها على طرحها. وإن قالت في الاشتياق واللوعة فلن تبالغ وترسم بكلماتها خيالا أو تنتقص من جمال الأشياء، لأنها ببساطة تتعامل مع الشوق عن بعد، دون انحيازات شخصية، وهذا ما جعل تناولها للجوانب العاطفية مختلفا.

حتى الخبراء والمختصون وذوو المعرفة لا يفلحون في الإفلات من قبضة تجربتهم وقصتهم هم، فيقولون ما تدفعهم تجربتهم لقوله وهذا ما يجعل رأيهم صالحا للتداول في محيط يشبههم ويشبه ظروفهم، ولا يجد رأيهم رواجا ولا قابلية للتفسير والأخذ به عند البعيدين كل البعد عن تلك الحال. كانت المسافة تمنح هيفاء امتيازات عن غيرها.

تقول ما تجد الغالبية فيه شيئا يوافقها، والشأن العاطفي كما كل شيء في برنامج هيفاء كان يخاطب الغالبية العامة ويستهدفها، كأن هيفاء جلبت الشخصين الواقعين على أقصى نقائض المستمعين ووقفت في نقطة منتصف المسافة بينهما بالضبط.

هيفاء تخاطب الغالبية ولكنها في الوقت عينه تهمس في أذن كل فرد كأنها تقول له سرا، فيشعر كل مستمع أنه في قمرة ذاك الهاتف العمومي في ساعة متأخرة من الليل يهاتف هيفاء وتهاتفه وحده، وينسى مئات آلاف الآذان التي تتوسع وتتمدد لاستجلاب أكبر قدر من صوت هيفاء وحديثها.

أمر آخر وأخير حتى لا يتحول الأمر إلى تعليق طويل على نجاحات هيفاء الإذاعية. كانت هيفاء تعمد في برنامجها إلى فكرة فعالة تنظم حلقاتها دوما، تتمثل في الإشارة إلى حقيقة واقعة يتجاهلها الناس تباعا فتبغتهم في اطلاقها سافرة واضحة أمامهم.

تماما مثل المتسول مقطوع الأطراف الجالس منذ خُلق المصرف عند بابه يسأل الناس صدقة ويكاد لا يجدها، يعرفون كلهم أنه موجود عند الدرجة الرابعة من درجات المصرف الخمس، ولكن عيونهم تسقطه وتسقط نهايات ما تبقى من يديه وساقه ذاك الجلد المخيط دون عناية والمتكور كأنه صرة. نموذج آخر على الحشو الذي يملأ الدنيا.

هيفاء تحدق فيه مليا وتملأ عينيها بحضوره وتلاحظ كل ضمور في جسده أو استطالة في شعره أو تقرحات في ما تبقى من جسده وبعد كل هذا تضع في حجره بضع قطع نقدية وتحفظ صوت

ارتطامها بشيء ما ساكن في حجره، لم ترتطم النقود بنقود يوما، كان يفرغ حجره كلما استقرت فيه قطعة.

تبني المصارف إمبراطورياتها المالية على فئات ضئيلة من النقود المعدنية، تلك اللبنات متناهية الصغر، المسننات الدقيقة، التي تحرك وحش المال المعدني الضخم، لا تظهر في المصرف، ولا تمسكها أيادي العاملين ولكنها تجثم في أسفل كل هذا.

لطالما تخيلت هيفاء ماذا يمكن أن تفعل تلك الذرات المالية لو وضعت واحدة منها في حجر العجوز مقطوع الأطراف مقابل كل حوالة مالية يجريها المصرف. كانت تراه مكتمل الأطراف البلاستيكية فائقة المتانة والمرونة مغطاة ببدلة فاخرة، كان سيغدو قصة نجاح ومثابرة وربما رجل أعمال تتحدث الصحف عنه وتتسابق وسائل الإعلام لكسب ودّه، وربما انشغلت الإذاعة في الحديث عن إنجازاته علّ شركاته تعتمدها كمنافذ إعلانية.

وبإصرار وجهد كانت هيفاء تمنع نفسها من التفكير بوضع تلك النقود في حجرها هي، فقد أدركت سريعا أنها لو هامت في أحلام وخيالات سخيفة كتلك فلن تقوى على العمل شهرا واحدا في المصرف. ولذلك قررت وبدأب أن تتجاهل الأرقام والأوراق النقدية وحتى تلك الذرات وتشيح ببصرها كلما رأت موظفا يحمل رزما، أو شاهدت عاملين صارمين يلقمان الصراف الآلي وجبته اليومية، وحين تمر بها صدفة شاحنة النقود المحروسة بالحديد والرصاص كانت لا تراها ببساطة، مثل لص خبير لا تستفزه الأموال وهي تعبر الطرقات، ويظل يعرض عنها في انتظار ليلة محددة خطط لها منذ ست سنوات على الأقل.

ومن بين كل ممتلكات المصرف كانت تتناسى خزنات النقود بأرقامها ومفاتيحها، وتتجاهل تماما وجود غرفة ضخمة أسفل المصرف يحلم بها كل اللصوص، وتحديدا المبتدئون الحالمون بسرقة وحيدة تحملهم إلى جزيرة نائية لا تشغل حجورهم فيها إلا الجميلات المشوّحات بالشمس.

وعلى صلة ببرنامجها ونجاحه ومتسوّل المصرف، أدركت هيفاء من خلال برنامجها أن القليل من المهوسين والمتابعين الدؤوبين أمر مركزي في نجاح أي برنامج شبيه، هؤلاء يمنحون الجمهور المحتمل جسر اتصال مع البرنامج، وجودهم ضروري لمنح البرنامج ثقلا وثقة، فالناس يميلون للكثرة، فهي تقنعهم بشيء واحد على الأقل، تقنعهم أن هنالك شيئا غير عادي يستحق فضولهم بصرف النظر عن قيمته.

من هنا كانت نصيحتها للمتسول مقطوع الأطراف العجوز، لا تفرغ حجرك تماما، اترك فيه بعض القطع النقدية، هذا يطمئن الناس، وقطع نقدية في حجر متسول دليل على أن هنالك من رآه مستحقا للصدقة، أليس جوهر التسول كعملية ونشاط هو إقناع الناس باستحقاق المتسول للصدقة! في أمور كهذه وعلى غير العادة يحب الناس أن يكونوا الرابع والخامس بدل أن يكونوا الأول.

بدا واضحا بعد حين أن المتسول أخذ بنصيحتها مع أنه لم يطلق أي إشارة فهم حين تحدثت إليه. صارت تسمع صوت ارتطام نقودها بنقود آخرين في جوف حجره، وترى التماعات معدودة تخرج من كوّة الثياب بين رجليه.

أما الإجابة على سؤال تكاثر الغلة أو تقلّصها بعد التكتيك الجديد فما كان لهيفاء أن تعرف إجابته إلا من المراقبة الدؤوبة، والتي أسفرت عن حالة مترددة، مرة يحتفظ بالنقود في حجره ومرة يخفيها، كانت هذه التقنية أكفأ وتضمن في المحصلة مراعاة كل نوعيات عابري الطريق. في برنامجها كانت هيفاء تكتسب الخبرة، أما المتسول فكان يستخدمها.

20

حين كانت هيفاء تسهّر المدينة كلها ليلا وتعلق الآذان بها وتحقق نجاحات غير مسبوقة، كان يزداد خوفها من عودة الأيام الماضية، وتعرّفها إلى المخاوف واختبارها ارتبط بتعرفها على حياة خالية منها، على حياة جديدة فيها ما يمكن الخوف من ضياعه وفقدانه.

أما مخاوف عبّاس فكانت لا تذكر في تلك الأيام، فأخطر ما قد يواجهه، عميل أو زبون في المصرف يرفض الامتثال للدور الصارم ويحاول تجاوز الطابور في الطريق إلى الموظفين لإتمام معاملاته المالية. وبسبب ملامح عبّاس الهادئة الواثقة وهو يؤدي مهمته في تنظيم الصفوف وحفظ الأدوار والإجابة على الأسئلة البسيطة العابرة من العملاء والزبائن، لم يكن يحدث ما يثير أي اضطراب، إلا في حالات نادرة جدا.

وتلك الحالات على ندرتها كانت تتكرر بشكل متشابه، وأبطالها من فئتين ثابتتين، الأغنياء جدا، من يملكون في خزنة المصرف رصيدا يصعب على عبّاس معرفة عدد خاناته. والفقراء الذين يزورون المصرف للمرة الأولى.

الأغنياء كانوا يعتقدون أن حجم أموالهم يؤهلهم لتلقي معاملة خاصة، فيأنفون من الوقوف في الطوابير الطويلة، ويضطر عبّاس لخوض نقاش معهم يمتد لدقائق يحشونها بالكثير من الإهانات والشتائم، في حين يحتفظ هو بعبارة أو عبارتين تحضان على احترام النظام، مع قدرة عالية على إرفاق تلك العبارات بكل ألفاظ التأدب، مثل سيدي وسيدتي وحضرتك ولو سمحت ومن بعد إذنك. وفي العادة ينتهي هذا النقاش الآلي بوصول موظف آخر ليأخذ بيد العميل الغني ويعتذر له ويسهّل له معاملاته دون أن يضطر للاختلاط بالعامة، وعبّاس أول العامة بطبيعة الحال.

أما الفقراء، زوار المصرف النادرون، فكانوا بحاجة لخريطة إرشادية ودعم نفسي حتى يسيروا على الطريق السليم الذي يرعاه عبّاس، ولا يمل عبّاس من بث الطمأنينة في نفوسهم وإرشادهم، كان يشعر بمتعة توجيههم وتبديد توترهم.

بعد أن توالت شكاوى الأغنياء من سوء مساواتهم بغيرهم قرر المصرف تخصيص خدمة خاصة لهم لا دور فيها ولا طوابير ولا عبّاس. يدخلون سريعا حيث تستقبلهم إحدى جميلات المصرف وتجري معاملاتهم ريثما يشربون القهوة أو أي شيء يفضلونه ساخنا أم باردا. وبقي عبّاس يواظب دوما على توجيههم بحركة من يده مع انحناءة صوب ركنهم الفخم دون أن يعيروه أي انتباه.

أما الفقراء فلم يتغير شيء من حالهم وظل عبّاس يتكفل بهم. وقد يحلو لعباس إضافة فئة نادرة أخرى إلى حالات عمله غير الاعتيادية، وهم المجانين الذين يضلون الطريق ويدخلون إلى

المصرف فجأة، وقبل أن يحدثوا أي جلبة كان عبّاس يترفق في إخراجهم وكأنهم إخوته، ومع كل مرة يقوم بهذه المهمة النادرة كان يأتي مدير المصرف لشكره شخصيا، حتى بعد تعيين شرطي بدوام كامل على باب المصرف، ظل المجانين من اختصاص عبّاس، كانت صورة الشرطي يطردهم مسيئة للمصرف كما رأي المدير، وعبّاس أكفأ في التعامل مع تلك الحالات النادرة كما رأى المدير أيضا.

بخلاف كل الموظفين كان عبّاس يحب هذه التوترات الصغيرة فهي تبعث فيه شعورا بالطمأنينة، طمأنينة نادرة مصدرها أن كثرة التائهين والمرتبكين وخارقي قوانين المصرف التافهة، تعني أن المصرف بحاجة لعبّاس ووظيفته وأدواره، فهو وحده من يمكنه الإمساك بيد عجوز لم يبق لديه من حاسة السمع شيء ليساعده ويرشده منحنيا مثله، مقتربا منه حد الالتصاق.

كان انسياب حركة المراجعين والزبائن في طوابيرهم نحو موظفي المصرف، وسعادتهم بإنجاز معاملاتهم دون تعطيل، ميزة للمصرف الوطني، وتحديدا للفرع الذي يعمل فيه عبّاس، وكان عبّاس مصدر الميزة ببساطة، ولكن حتى حين.

21

علاقة هيفاء الحساسة مع الوقت، طوّرت فيها عادات وسلوكا غير إرادي ولا مقصود، بل نمت تلك العادات والأساليب بتحريض من التعامل العام مع فكرة فائض الوقت.

وكأن هيفاء تعلمت من مجمل تجربة البشر مع الوقت، وقادتها إلى نقطة متقدمة أو مستوى متجاوز لما تعارف عليه الناس. ببساطة رأت هيفاء في وصفة تقطيع الوقت وتقسيمه وتجزئته وبيعه والاستثمار فيه مأزقا يزيد من تسيّد الوقت وتسلطه على البشر، أي أن البشر حين ابتكروا تقسيمات للزمن أهمها الساعة والدقيقة والثانية وكل تجزيء أدق، كانوا يبغون السيطرة على الوقت وتحويله إلى صيغة أكثر محسوسية وأكثر قابلية للضبط والسيطرة، فبدل أن يفعل الوقت بهم حاولوا أن يفعلوا به، حتى الألفاظ المحيلة إلى ما هو الوقت كانت تمر بمراحل تقنين وضبط، فالوقت غير الزمن وغير الزمان، ولعل وفرة التعابير والمفردات المتصلة بكل ما يتصل بالوقت تفصح عن حجم التوتر البشري حياله.

يبدو أن لمحاولات التفلسف سطوة عليّ، ولذلك فالعودة إلى هيفاء أهم، والنتيجة أن هيفاء اكتشفت دون تفلسف ولا تجريد أن ما فعله الإنسان قاد إلى نتائج عكسية، أي أنه بات معلقا بالأجزاء

التي حاول بتر الوقت بها، أي أن سكين التقسيم والتفتيت التي أشهرها في وجه الوقت استدارت نحوه وحشرته في زاوية العقارب والأرقام، والسكين تلك صارت عند العرب سيفا. أدركت هيفاء أنه لا يمكنها بأي حال أن تقطع به، وأنه قاطعها لا محالة، والحل الأسلم هو إبطال مفعول السيف، أي تحويل الوقت إلى حالة عبثية فوضوية غير مضبوطة بأي ضوابط ولا سعي للتعامل معها وفق أي منطق، كأنها غير موجودة، كانت هيفاء تذيب الوقت.

هي لم تكن تسمي ما تفعله إذابة للوقت أو تسييلا له، بل هذا تقريب لما كان يحصل فعلا معها أو هكذا فهمته أنا.

المهم، كيف حصل ذلك؟ عبر عدة آليات وأساليب ووصفات، ومن المهم التأكيد على أن ما فعلته هيفاء لم يكن يشمل عملها وساعاته، فتلك إكراهات لا فكاك منها، ولذلك فإن موعد بدء العمل وانتهاءه، وتلك الساعات الثمانية تعتبر إجازة للوقت من أفعال هيفاء به، وهيفاء تتعامل معها وكأنها ضريبة يستطيع الوقت أن يقتص منها خلالها.

مارست هيفاء نسبيّة عالية، بل فوضوية تامّة في تعاملها مع الوقت ومعاييره، فمثلا يمكن القول إن خلع هيفاء لملابسها يحتاج إلى وقت أقل من تنظيفها البيت كاملا، أو أن غسلها لوجهها صباحا يستغرق وقتا أقل من استحمامها. إلا أن هذا لم يكن الحاصل فعليا، فهيفاء كسرت كل المعايير من قبيل أقل وأكثر، أقصر وأطول، ولأمد غير يسير احترفت كسر هذه المعايير، فانتعالها لحذائها قد يمتد لساعة بمعايير الوقت المعتمدة، وتستهلك من الوقت خلال ترتيب

فراشها أضعاف ما تستهلكه وهي تنظف زجاج بيتها والأرضيات وكل الأسطح والرفوف.

كانت تحيا دون معايير وقتيّة، ولا تركن إلى أي فترات تقريبية لفعل الأشياء، فما يحتاج لساعتين اليوم قد ينجز غدا بدقيقتين أو أقل، كانت تمطّ الوقت وتعجنه وتلوكه وتبصقه، دون أي ترتيب أو تدبير بمعايير واضحة.

ارتماءتها على الكنبة المقابلة للتلفاز حين تعود من المصرف قد تمتد لعشر ساعات وربما لصباح اليوم التالي، أو لا تتجاوز عدة إعلانات تجارية تظهر على الشاشة. وهذه الارتماءة تحديدا كانت أشبه بتطهّر مما فعل الوقت بها خلال ساعات العمل، وكانت تلك الارتماءة على قدر العفوية الظاهرة فيها تخبّئ إصرارا واقتدارا على ترويض النفس والجسد.

هيفاء عنيدة، عنيدة حقا، بل هي كتلة من الصمت والبرود إن أرادت. على الأقل تبدو قادرة على مواجهة أي ظرف أو حالة بالنظرة نفسها وثبات الجفنين عينه وإحكام إيصاد الشفتين كأنهما لم تخلقا لتنفرجا.

كل هذا يحيل إلى نقيضه، ولكن ذاك النقيض الكامن في مكان ما داخل هيفاء لم يكن يرسل أي إشارات وجود إلى الخارج، والخارج خارج هيفاء وأمام أي آدمي أو آدمية.

ولكن هل يمكن العيش في عالمنا بعلاقة مع الوقت كتلك؟ ليست مهمة الإجابة بنعم أو لا، المهم أن هذا ما فعلته هيفاء لفترة طويلة ثم توقفت عن فعله حين عرض عليها العمل في الإذاعة.

كان ذاك اليوم مفصليا تماما وتغير معه كل شيء تقريبا، بعده أصبحت هيفاء تشبه ظروفها حياتها، بدأت تقترب من التوقعات والافتراضات المعهودة في حالة امرأة تشبهها، ولكن ذلك تم بعد مرحلة كانت فيها هيفاء حالتها الفريدة المطلقة، ومسألة العلاقة مع الوقت مثال على الأمر برمته.

فحين عادت هيفاء للتعامل مع الوقت بمعايير الناس في زماننا تم ذلك بعد فترة فارقت فيها المعايير السائدة ورفضت الاستسلام لها، وأخضعت نفسها لظروف عجيبة لتوطّن نفسها على نفي العلاقة السائدة مع الوقت وتم لها ذلك عبر كل الأساليب والتمرينات الذهنية والعملية التي انتهجتها، وهكذا كان تعاملها بالمعايير السائدة مختلفا عن الناس، كانت خبرتها تؤهلها لفهم الوقت بعد أن كان ندّها لفترات طويلة وانتصرت عليه، وها هما اليوم يتواجهان مجددا ولكن بمنطق مغاير فكل منهما عرف ما لدى الآخر من سطوة وقوة وبدا الأمر أشبه بهدنة غير معلنة بدل أن يكون مواجهة. ولعل ما جرى مع الوقت يصلح لتفسير علاقة هيفاء بالكثير من مفردات الحياة وأوجهها، فما قبل برنامجها الإذاعي شيء وما بعده شيء آخر.

ولكن الوقت اكتسب أهمية مضاعفة وشغل حظا واسعا من الحديث هنا لأنه على علاقة ببرنامج هيفاء وعلاقتها مع صوتها والإذاعة، وهذا ما دفع هيفاء لتفهم وجها آخر من العلاقة مع الوقت، وتحديه دون كره ولا بغض ولا تبجّح، كان الوقت يقف بينها وبين ما تريد، ولا يمكنها أن تصل إلى ما تريد دونه، وهذا ما جعل هيفاء تدرك فوق إدراكاتها السابقة، ما الوقت، وماذا يفعل

بالدنيا، وماذا يمكن أن تفعل الثواني بها، وماذا يمكنها أن تفعل بالثواني.

فحين كانت في مأوى العجز كان زمنها الخاص بالكاد يتزحزح، لا يتحرك ولا يمضي. كمولود جديد لا يعرف ما المشي.

وحين دخلت المصرف بدا وكأن زمنها تعلّم المشي بعد تعثرات عديدة، وبدأت الأيام تسير إلى جانبها.

وحين جلست في استوديو الإذاعة ودبّت الحرارة في هاتفها العمومي شعرت بالزمن يهرول. بدأ اليوم ينتهي دون أن تفكر فيه، وبدأت الأسابيع تتقلص حتى شعرت أنها تقفز من جمعة إلى جمعة، وتغلق باب الأستوديو خلفها لتفتحه مرة أخرى.

وبعد عدة أسابيع على إشراع هاتفها العمومي بدا وكأن هرولة الزمن غدت جريا. شعرت بذلك حين نبّهها مهندس الصوت إلى أنها بلغت الحلقة الثالثة والعشرين لا الثانية والعشرين كما كتبت على أوراقها.

كانت تلك المرة الأولى التي شعرت فيها هيفاء بالزمن يسبقها، فرحت أيما فرح، وشكرت مهندس الصوت طويلا دون أن يفهم على ماذا. ومع سعادتها الطافحة شعرت هيفاء ليلتها أن عليها هي أيضا أن تهرول قليلا حتى لا يخلّفها الزمن وراءه ويمضي.

22

«الموسيقى والأغاني»، شيئان آخران فرض «هاتف عمومي» على هيفاء إعادة ترتيب علاقتها معهما. كانت هاتان الكلمتان تعودان بهيفاء إلى مأوى العجزة عودة مباشرة حادة، وإلى العاملة التي أهدتها مذياعا صغيرا مع سماعات أذن، ونصحتها بالاستماع إلى الأغاني خلال عملها لتخفف عن نفسها، ونصحتها نصيحة أخرى وهي تحزم حقيبتها لمغادرة المأوى وترك العمل، طلبت منها أن تبكي كل ما شعرت بالحاجة للبكاء، فالدمع خارج العين دواء وداخلها سمّ.

ومنذ ذاك اليوم وحتى خرجت هيفاء من المأوى كان لها نصيب سريّ من الدمع والأغنيات. وكان يفيض نصيبها ذاك قبيل المساء، كأن انسحاب الضوء من النهار، وإذابة ألوان الأشياء عند الغروب يرسل إلى بدن هيفاء طاقة لئيمة تسكن كل خلاياها، فتجبر تلك الطاقة كل خلية على دفع نصيبها من الدمع، فيبدأ زحف الدمع البطيء، ويعبر دبيبه جسد هيفاء كله بحثا عن مخرج. وفي مساءات بعينها كان الدمع يضلّ طريقه متعمدا! كأنه يمنّي النفس بمخرج مدرار أكثر من عينيها، فيظل يموج بجسدها ويضطرب طولا وعرضا حتى ترتمي هيفاء على أي شيء وتبدأ بالبكاء.

كان كل ما فيها يبكي، ولذلك كانت تسرع إلى غرفتها حتى تصلها قبل اهتداء الدمع لعينيها، فتلقي بنفسها على ما سموه فراشا، وتبدأ بتحسس جسدها كله محاولة الإطباق عليه بكفيها لعلها تسكت بكاءه، والعينان تسكبان كل ما يرد إليهما من ماء مالح. كانت تموج في فراشها وهي تتحسس جسدها وتحاول ضبط تنفسها المتفلت. ولو أن أي عاملة من العاملات في المأوى وضعت أذنها على باب غرفة هيفاء لاستمعت إلى خليط أصوات عجيب.

يعرف الناس صوت البكاء، ومع كل تنوعه واختلافه من إنسان إلى آخر، يظل صوتا معروفا وقابلا للإدراك، أما صوت مكابدة البكاء وكبته، فهو صوت غريب لا يتشابه فيه بشريان.

وتظل هيفاء على تلك الحال حتى يجف الدمع وتكل يداها من محاولة إمساك مصادره، وحتى تسمع من الخارج نداء عليها لتشارك في توزيع وجبة العشاء على النزلاء والنزيلات وتتولى إطعام مجموعة منهم. كان ذاك النداء المسائي يخرج هيفاء من داخلها ويعيدها إلى حياة المأوى، حياتها في تلك الأيام.

وحتى لا يجرفنا الدمع وينسينا الأغنيات، فقد كان المذياع الصغير هو مدخل هيفاء إلى عالم الأغنيات والإذاعات، فما إن تنهمك في عمل طويل حتى تضع السماعات في أذنيها وتلاحق الأغاني في الإذاعات الكثيرة. كان الاستماع يمتد لعدة ساعات يوميا ويأخذ هيفاء إلى مساحات لم تعشها ولم تحسها من اللهفة والشوق والفرح والحزن والتحسر والندم والألم، كانت الأغنيات تعرّفها على حيوات كثيرة لم تكن تعرف هيفاء عنها شيئا. ولأنها جديدة على هذا العالم لم يكن لهيفاء ذوق محدد، بل كانت تسمع كل شيء.

لا يعني هذا أن هيفاء في طفولتها المبكرة وبدايات مراهقتها لم تستمع إلى الأغنيات، فهي كغالبية البشر العاديين استمعت، لكن استماعها لم يكن مقصودا لذاته، كان يتم عرضا في بيت الخالة أو في وسيلة مواصلات أو في المدرسة، كان عرضيّا في الغالب وتتشابه معه الأصوات والألحان والكلمات، أما ما حصل مع المذياع الصغير فهو شيء مختلف تماما، أصبحت هيفاء تسمع لتسمع فقط، حتى فكرة الترويح عن النفس أو إشغال البال بأغنية ما، لم تكن واردة حينها، كان الاستماع إلى المذياع الصغير فعلا مستقلا بذاته ولا ينقطع أبدا، لا ينقطع لدرجة جعلت هيفاء تشتري حفنة من البطاريات لتجنّب أي انقطاع في الاستماع حتى تحصل على بطاريتين جديدتين حال نفاد طاقة الموضوعتين في المذياع.

ربما كان المذياع الصغير ذاك من أهم الأشياء التي شكّلت وعي هيفاء للحياة في تلك المرحلة المفصلية، ويفوق أثره أثرَ التلفاز في بيت الخالة حيث كانت تلجأ بعد أن تنتهي من كل الأعمال التي تكلفها بها خالتها.

كان المذياع وسيلتها للتواصل مع العالم خارج مأوى العجزة، فلا تلفاز يمكنها الجلوس قبالته لساعات ولا وقت لديها لذلك، ولا يمكنها قراءة الجريدة مع حجم الأعمال اليومية المهولة التي تنتظرها، وفي المرات القليلة التي استلّت فيها جريدة أو كتابا وأخذته إلى غرفتها في المأوى للقراءة سقطت في النوم قبل أن تقرأ سطرا واحدا، كانت بحاجة لشيء يصلها بالخارج ولا يستهلك الوقت والجهد فكان المذياع الصغير الذي يرقد في جيبها ويتصل مباشرة بأذنيها.

بالنسبة لهيفاء لا تنفع الأحكام التقييمية مع الموسيقى، وليس هنالك جدوى من الحديث عن موسيقى أجمل من غيرها، الحكم المعياري الوحيد يتعلق بسياق الموسيقى، فترى أن هذه المقطوعة أنسب في هذا الظرف من تلك. ولذلك كانت تصرف مساء يوم الأربعاء في الإذاعة تستمع للموسيقى المتوفرة لتستقر على أي القطع تختار لحلقتها بعد يومين.

كانت في الغالب تبدأ بالآلات الوترية، تقسيمات عليها ومقطوعات بآلة واحدة، وتنتهي الحلقة بآلات النفخ شرقية وغربية، وفي أواسط الحلقات تختار مقطوعات حافلة من أنحاء العالم. لم تكن على علم تفصيلي بالموسيقى، بل كانت تعتمد على أذنها ولا تكلف نفسها عناء حفظ أسماء المقطوعات ومؤلفيها أو حتى أسماء الآلات الموسيقية، بل تستمع لساعات وتختار منسحبة خلف شعورها المحض بما تسمع، وكلما وجدت مقطوعات من أصقاع بعيدة غائرة في هذا العالم كانت تسرّ أكثر وتحرص على استخدامها.

هذا ما حصل بالضبط حين سمعت مقطوعات نرويجية لعزف بالنفخ عبر قرون الماعز، أصرت هيفاء على استخدام تلك المقطوعات البسيطة الآتية من البعيد البعيد طوال حلقاتها 25 و26 و27، ثم وضعتها نغمة رنين لهاتفها المحمول، وظل قارئ الاسطوانات في بيتها يعيدها ويكررها لأيام. حتى خشيتْ من إلزامها لمستمعيها بما تحبُ وترغب، فعادتْ إلى تنويعاتها المعتادة.

والحديث عن الموسيقى يطرح مسألة تخلي هيفاء عن الأغنيات ورفضها لها في برنامجها بل وإصرارها على الرفض. ويمكن فهم

الأمر بداية على أنه نقطة اختلاف تصر هيفاء عليها، اختلاف عن كل برامج الليل المحشوة بالأغنيات وتحديدا تلك الحزينة البائسة. ثم إن هيفاء كانت تعرف ما للأغنيات من وقع على ذاكرة المستمعات والمستمعين، ولذلك رفضت أن تعكّر صفو مستمع واحد بأغنية تذكره بخيبة أو وجع في ساعتها الفريدة. ثم إن هيفاء -دون أن تصرح- لا تريد طوال الساعة تلك أي صوت بشري إلا صوتها وصوت صديقاتها وأصدقائها المتصلين. لا تريد لساعة الليل ان تتحول جوقة أصوات، تريد أن تتسيد السمع وتوزعه بطريقتها.

قد تكفي هذه المبررات لرفض هيفاء القاطع للأغنيات بكل أنواعها وأشكالها ومستوياتها، إلا أن هنالك سببا آخر مهما، وهو أن الأغنيات تعيد هيفاء إلى أيام مأوى العجزة، إلى الراديو الصغير وساعات البكاء والتيه، إلى اختبار مشاعر لم تعرفها من قبل، إلى حزن الأغنيات المتسرب إلى قلبها، وإلى فرح الأغنيات المحرومة منه.

ظل هذا السبب محبوسا في صدر هيفاء، ولكنّه تفلّت منها وهي ترد على متصل سألها أن تذيع أغنية في نهاية الحلقة التاسعة والعشرين.

23

الحلقة التاسعة والعشرون

«يمكن أن نتعامل مع مشاكلنا العاطفية في حدودها الطبيعية، الحدود التي نعرفها لأننا نعيش تلك المشاكل.

الأغاني توسّع مشاكلنا العاطفية وتعمّقها تعطيها معاني لم نعشها نحن تحديدا.

كل هذه الأغاني تستغل لحظاتنا الخاصة جدا والعادية والممكنة وتحولها لشيء آخر. نتوهم أن ما نشعر به هو نفس ما تتحدث عنه الأغنية.

ومشكلة الأغاني برأيي يا صديقاتي وأصدقائي أنها موجودة دوما في كل مكان وفي كل لحظة ولا يمكن أن نعزل أنفسنا عنها.

نعرف كلنا أن الحب في الأغاني ليس الحب في الواقع ولكن هذه القناعة تذوب حين نسمع أي أغنية تتحدث عن حالة شبيهة بحالتنا.

أسأل نفسي وبالتأكيد قد تكونون قد سألتم أنفسكم لماذا معظم الأغاني حزينة وبائسة؟ أفكر أحيانا أن كل هذا متعمد، من السهل

التلاعب بالحزن وتضخيمه وتوسيعه. هذا أصعب بكثير من التلاعب بالسعادة.

أشعر أحيانا أن كل هذا السوق الغنائي قائم على التلاعب الرخيص بمشاعرنا.

حين نسمع الموسيقى في هذا البرنامج أو في أي مكان، قد تذكرنا بأحزاننا وأفراحنا، ولكنها تظل أحزاننا وأفراحنا نحن، كما نعرفها دون أوهام.

أما الأغاني فهي استغلال لقرب الموسيقى منا وحاجتنا إليها ليمرّر عبرها كل التلاعب بالعواطف والمشاعر.

كيف نسمح لمن يكتب كلمات ويلحن لحنا هدفه الوحيد أن يعمّق أحزاننا أو يوهمنا بأفراح غير موجودة أن يفعل ذلك بكل سهولة؟

هناك مساحة في داخلنا، رغبة أو حاجة للتماهي مع حالة أخرى ليست لنا، هذا ضعف برأيي، وهذا بالضبط ما يستغله القائمون على تجارة الأغاني.

كيف نسمح لمن يفعل كل ذلك كعمل وكسب رزق أن يحدد تصوراتنا عن مشاعرنا وأحاسيسنا؟ ألا نخطئ حين نقول إن الأغاني تقول ما يخطر ببالنا أو ما نشعره ونحسه؟

هذه صناعة أوهام. سامحوني يا أحبائي لأنني حادة اليوم.

اسمحن لي واسمحوا لي باللجوء إلى القليل من الموسيقى قبل إنهاء حلقتنا.

الأغنيات تخدعنا دوما أما الموسيقى فلا تعرف إلا الصدق.

سأشتاق إليكم، أسبوع كامل، لا أدري لماذا أشعر أنه سيكون أطول من كل الأسابيع! أنتظركم جميعا.

قد يكون هذا المطر الذي يغسل المدينة آخر مطر في هذا الربيع. لا تضيعوه بالجلوس في بيوتكم. تمشوا في الطرقات الصغيرة وراقبوا الأشجار التي لم تخلف مع المطر أي موعد.

وحين تتمشون في الطرقات والأزقة، استمعوا جيدا ... هنالك هاتف عمومي يرن ... لا تتركوه يرن طويلا.»

...

كانت هذه من المرات القليلة التي تتورط فيها هيفاء بإبداء رأي شخصي وبهذه الحدة في برنامجها. ولولا التأثر الذي غشي حديثها كله، ولولا صوتها الآسر، أو لو أن هذا الحديث نفسه قيل في مكان آخر على إذاعة أخرى وبصوت آخر، لاندفع المتصلون والمتصلات لإمطار قائله أو قائلته بكل شجب واستنكار ومعارضة. إلا أنها هيفاء وهاتفها العمومي وانفعالها النادر.

صوتها يكفل منح أي كلام تقوله هالة من أهمية وشجن وعاطفة. لا أدري من يتلاعب بمن في هذه الحالة. يمكن أن يوفر صوتها لها كل إمكانيات التلاعب.

ويمكن أيضا أن يكون انفعال هيفاء متصلا بما تحمله الأغنيات من سيالات ذاكرة، ربما تبعث فيها الأغاني حالة مأوى العجزة وهي في ذروة عافيتها واندفاعها. تعود بها الأغاني إلى هيفاء أخرى

تجاوزتها وخلّفتها وراءها ولا تريد أن تُدفع للتفكير فيها. وربما تحمل القدرة على استحضار الماضي والتفكير به خوفا من إياب إليه، العودات النفسية المتعاقبة تنذر باحتمالية عودة حسّية.

وهذا ربما حال هيفاء والأسماء، فإصرارها على متصلين ومتصلات دون أسماء، وتكرارها الإفصاح عن رغبتها بـ «هاتف عمومي» دون أسماء معلنة وواضحة يلقيها المتصلون والمتصلات على مسمعها وفي وجهها، لم يكن طلبا لصراحة أكبر وتخففا من أي تبعات لمعرفة المستمعين والمستمعات لهوية المتصلين وحسب. كانت الأسماء التي يفتتح بها المتصلون والمتصلات حديثهم تلدغ زاوية ضعيفة في مؤخرة رأس هيفاء، هناك حيث تكمن ذكرياتها عن «عجوز الأسماء» في المأوى.

مجرد نطق أي اسم مفردا في ليل برنامجها كان يعني سيالا عصبيا خبيثا يتلقّف الاسم ثم يدخله إلى تجويف كئيب في دماغها ويخرجه معدّلا بصوت العجوز في المأوى، ليتردد داخل رأس هيفاء تماما كما كان يتردد داخل ليل أيام المأوى الأولى، طويلا جافا رتيبا كأنه لا ينتهي.

ولكي لا تتذكر هيفاء كل هذا ولتتجنب لدغات الأسماء وكوابيس عجوزها، تظل تطلب من المتصلات والمتصلين أن يتخففوا من أسمائهم عند الحديث إليها، إلا أن ذلك لم يكن يجدي دوما، فالأسماء كانت تلقى على مسمع هيفاء كعربون تعارف وإعلان رغبة بوصل هيفاء يعقب الاتصال بها. وظلت العودات الذهنية إلى المأوى ثابتة كأنها ضريبة التخلص الحسيّ منه.

بقيت هيفاء مستاءة حتى الحلقة التالية، أسبوع كاملة وهي نادمة على ذلك الإسقاط الشخصي لرأيها وتجربتها على حديثها في هاتفها العمومي. فكرت بالاعتذار لجمهورها -هكذا سمته عدة مرات في لقاءاتنا الأخيرة- عن اندفاعها الأخير، إلا أنها تراجعت ولم تعتذر.

24

تدرك النساء في حالات وظروف متباينة، ومفاجئة في كثير من الأحيان، مقدار القهر الكامن في حقيقة كونهن إناثا في هذا العالم، لكل منهن قصة عن لحظة الإدراك تلك، هيفاء اعترفت بلحظتها، كانت ببساطة -ما أقبح هذه الكلمة في سياق كهذا- حين اضطرت اثر سفر طويل أن تدخل مرحاضا في محطة وقود، مرحاضا مخصصا للرجال، كأنهم الوحيدون الذين يحتاجونه في ذاك الدرب الطويل.

وراء الباب الحديدي الذي يغلق بسلك معدني مجدول كانت القذارة أكثر من أي وصف، والفضلات كأنها سقطت من ارتفاع شاهق داخل ذاك الصندوق، حتى أن نتفا منها بلغت السقف وتيبّست! كان كل شيء جافا ومحطما.

بجسدها الضخم اضطرت هيفاء لملامسة أشياء كثيرة في ذاك التابوت المظلم، كانت مضطرة للجلوس هناك لتفرغ جسدها من سمومه وتملأه قهرا.

ماذا لو كانت نحيفة؟ ربما تمكنت من فعلها وهي واقفة، تباعد بين رجليها وليحدث ما يحدث. في حالتها كانت المباعدة بين رجليها

تحتاج مساحة تابوت إضافي حتى تأتي بنتيجة، وإلا ستخرج السوائل المختمرة من داخل الجسد لتلطخ خارجه.

ماذا لو كانت رجلا؟ هنا تحديدا كانت لحظة الإدراك الخاصة بهيفاء.

تفتح الباب وتقف خارجا وتطلق السوائل بعيدا، تصوب بيد وتغلق انفها بالأخرى، وتغمض عينيها ثم تمضي.

في مرحاض عام أدركت هيفاء أن مجرد كون الإنسان امرأة في هذا العالم مبعث حزن لا ينتهي، وأخرجت أضعاف البول دموعا يومها.

لم تدرك ذلك وهي ترى الوجوه تشيح عنها وتتجنبها كأنها مصابة بمرض ينتقل بالنظر، ولم تدركه طفلة وهي تلفّ صدرها ليلا بطبقات قماش حتى لا يكبر ويتكاثر الناظرون إليه، ولم تدركه حين استيقظت على ضحك الخالة المتصاعد حين رأت الدم يسيل على باطن فخذ هيفاء ذات ظهيرة جافة.

تعيش النساء قبل لحظة إدراكهن تلك إنكارا مستمرا لكل الحزن العابر، ويعشن بعدها في استشعار دقيق لكل أوجه الحزن لدى كل بنات جنسهن، من الطبيعي أن يخضن معارك ضد الحزن قبلها، ومن النادر أن يخضن المعارك بعدها، وان انتصرت إحداهن فستعيش دهرا طويلا تلعق جراحها.

هزائم هيفاء لم تكن على يد رجال محددين، بل على يد الرجال، بل منطق الرجال في هذا العالم، بل منطق العالم المستجيب لمنطق

الرجال، ولو كانت هزيمتها مجسدة في رجل محدد لكان النصر ممكنا ولو بعد حين، مشكلتها أنها ككثير من النساء لا يمكنهن الإمساك بأعدائهن ولا خوض معارك واضحة معهم. لا بؤس أكبر من هزيمة لا تدركين من أوقعها بكِ.

25

ربما بدا، دون قصد، أن هيفاء تجاوزت سؤال العائلة بسهولة، وهذا غير دقيق تماما، فلم يكن لهيفاء أن تتجاوز كل الأسئلة المتعلقة بعائلتها بسهولة، كان ذلك مخالفا لكل سائد في محيطها ومجتمعها. كان مخالفا لكل المنطق العام حولها، حتى أنه مخالف لموروث طويل من حكايات كرتون الأطفال الرائجة في طفولة هيفاء، حيث يخوض أطفال مغامرات خارقة بحثا عن عائلة أو أم.

ترسّخ لدى هيفاء أن أهلها تسببوا -بقصد أو دونه- بالكثير مما تعيشه الآن، ولم تتصور أن تضيف إلى كل ذلك أعباء البحث عن إجابات لم يتَعَنّوا في توفيرها على الأقل لابنتهم.

كان الإنكار هو رد هيفاء على كل ما ألحقه بها من سمتهم مجازا عائلتها، وأول الإنكار، إنكار أي رغبة أو دافع أو حتى فضول يحرّك البحث عن إجابات أوفى عنهم.

والثابت أن هيفاء لم تبذل جهدا جديا في السعي لتحصيل الإجابات، وحتى تلك الروايات التي تولّت نقلها الخالة لم تخضع لنقد جدي مدعم بمحاولات صادقة للوصول إلى الحقيقة.

هيفاء عاقبت أهلها بنسيانهم وبعدم الانشغال في البحث عنهم أو التعلق بشذرة تحيل إليهم. كان رد هيفاء الأهم هو الإنكار المطلق، إنكار الحاجة للمعرفة قبل أي شيء.

لأجل ذلك وكثير كثير غيره، توفرت لدى هيفاء كل أسباب الحنق والسخط على العالم، والعالم يعني كل شيء حولها، ليست بحاجة لمبررات ولا توضيحات حين تجابه أي شيء بالصراخ والزعيق ونوبات الغضب، يمكن أن تقف في شارع عام وتسب وتشتم أمهات المارين جميعهم دون استثناء، ويمكنها بعد ذلك أن تنظر إلى أعلى، إلى الغيوم والسماء وتسب الخالق وتتهمه بالظلم وانتفاء العدل من صنعته، يمكنها أن تسخر من جحيمه ونعيمه، فهي تعيش الأولى وتجد الثانية في كل شيء لا تملكه. يمكنها أن تهزأ من أقداره التي يرعاها ليل نهار، ويمكنها أيضا أن تنظر في الفراغ وتهجو الصدفة اللئيمة أو الفوضى المحكمة أو الانفجار الكبير الذي أوجد كل هذا.

لن يستغرب أحد لو فعلت كل هذا وربما سيعذرها الجميع، يكفي أن يروها وهي تفعل ذلك ليعذروها، ولكنها لم تكن تفعل أيا من هذا، لأنها عمليّة ببساطة وتدرك أن كل هذا لن يغير شيئا، كانت تبدد غضبها وحنقها بالتفكير في انعدام جدوى الغضب والحنق، فالأشياء التي لا تغير شيئا بلا قيمة عند هيفاء ولا تجد تعريفا أفضل للجنون إلا كإتيان للأشياء التي لا تغير شيئا، أما الحزن فلم تكن تجد له علاجا ولا حيلة ولا دواء، لأنه ينبعث من داخلها، من مكان غائر فيها هي تحديدا ولا يمكنها لوم أحد عليه، لا الناس ولا الرب

ولا الصدفة ولا الأقدار ولا الانفجار الكبير، الحزن منها ولا ينفع معه إلا التسليم لطقوسه الطويلة التي ألفتها هيفاء.

بالمناسبة، لم تفقد هيفاء الإيمان، هي لم تملكه يوما حتى تفقده، والإيمان هنا يعني إيمان الناس العاديين. هي لم تحيا بين عاديين ينقلون إليها إيمانهم، فلم تملكه ولم تفقده.

وهيفاء ليست من أصناف البشر التي يقصدها الدعاة والمبشرون، هي ممن يظن المؤمنون أنهم إما مؤمنون بما يكفي ليحتملوا ما هم فيه، أو جاحدون بما يكفي بسبب ما هم فيه. وفي كلتا الحالتين ليسوا هدفا واردا للراغبين في توسيع دائرة المؤمنين.

«الإيمان الذي نكتسبه من الناس أو نفقده بسببهم، ليس إيمانا»، جملة وحيدة هي كل ما قالته هيفاء أمامي في هذا السياق، تحديدا حين تعالى صوت الأذان من المسجد القريب خلال مشاهدتنا فيلما غنائيا. وما تبدّى لي بوضوح أن «الإيمان» برمته لا يشغل بالها في تلك الفترة، ولم يكن حولها من يشغل بالهم أيضا.

كانت تتجنب الناس وتبتعد عنهم، وتنهكها فكرة التواجد في مكان عام، كبهو المصرف أو شارع مكتظ أو أي مكان تضطر فيه لمشاركة الناس حيزهم.

وكانت واعية إلى أن غياب خصم محدد، عدو معروف قابل للتمييز والإشارة إليه، متورط ومدان في كل ما حصل ويحصل لها؛ سيدفع بها إلى حالات لا تقوى على التحكّم بها، ولذلك تبتعد عن الناس.

تعرف هيفاء جيدا أن غير القادرين على تحديد أعدائهم، سيميلون مع الوقت إلى تحميل أي إنسان مسؤولية ما وصلوا إليه، سيجدون البشرية كلها متواطئة في جريمة هم ضحيتها، يجدون في أنفسهم قدرة خارقة على خلق متهمين ومدانين وأعداء لمجرد أنهم غير قادرين على تحديد أعدائهم الحقيقيين، فكيف الحال بهيفاء التي تدرك كل هذا وتدرك ألا عدو محددا، بل مجموع الناس المرشحين لموجة قاتلة من قهرها في لحظة لا تقوى فيها هيفاء على المقاومة.

فتجنبا لكل هذه الحالات وتجنبا لنظرات الناس أو تجنبا لغياب نظراتهم، اعتمدت سائق تكسي يقلها في كل تحركاتها بعد أن أصبحت حالها المادية تسمح بذلك. هي صادقة مع نفسها وقالت لي مرة إنها تشعر أن مشيها ليس مشيا بل تدحرجٌ بطيءٌ، كانت تلك أمسية ثملة ضحكت فيها هيفاء على نفسها حتى بكت.

في بعض الأحيان كانت تطلب من صديقها السائق أن يجول بها في المدينة يعبر الطرقات الصغيرة الخالية لنصف ساعة أو أكثر في آخر الليل.

كانت تلك إحدى متع هيفاء الخفية.

أما مكانها الخفي المفضّل فكان المساحة الصغيرة من الحائط على يمين باب منزلها من الداخل. الحيّز الذي تتجه إليه بعد أن تغلق الباب على نفسها. تستدير دورة كاملة بعد أن تحكم إدخال المفاتيح في دهاليزها، وتضع ظهرها على تلك المساحة وتواجه الممر الصغير المفضي إلى غرفة عيشها.

تظل على تلك الوقفة لدقائق قد تطول إلى ساعة. تتنفس وتتنفس كأنها تتحوّط ليوم لا أنفاس فيه. ويزيد من سرعة الأنفاس اندفاعها السريع من الباب وإغلاقها المتعجل له.

ولو أن أحدا صوّر مشهد دخولها للبيت والتجائها إلى الحائط لجزم من يشاهده أنها هاربة من شيء ما، ككل الهاربات في الأفلام السينمائية.

أمثال هيفاء ومثيلاتها، من لا يجدون خارج البيت إلا ما يزعجهم، سيحبون بيوتهم، ملاذاتهم الآمنة، أوكارهم التي تشبههم، حتى لو كانت مهترئة الجدران حافلة بالرطوبة ومفضّلة لأنواع كثيرة من الكائنات القابعة في أدنى سلم تصنيف الكائنات الحية.

26

تأتي المصائب في أيام عادية جدا، هذه ميزة من ميزاتها. أي تمهيد أو إشارة إلى مصيبة قادمة يفقدها جزءا وافرا من سطوتها، ولذلك تأتي دون أي مقدمات ومحمّلة بالتوابع.

وذاك الخميس كان عاديا جدا، حركة عملاء ومراجعين أكثر من المعتاد في بقية أيام الأسبوع، ميزة أخرى لأهل المدينة، ينتظرون الدقائق الأخيرة من أي شيء لينجزوا ما غفلوا عنه في أوقات البراح.

والمصرف كعادته يغلق أبوابه عند الثالثة، بل يغلق حراسه أبوابه عند الثالثة لينجز الموظفون ما تأخر من أعمالهم في الساعة الأخيرة من عملهم قبل العطلة الأسبوعية. ساعة مهمة تدب فيها روح مختلفة، فرغم الإرهاق والتعب وتمنية النفس براحة العطلة القادمة، يتعالى الحديث من خلف المكاتب والمناضد، ويتبادل العاملون النكات ويتذكرون طرائف اليوم والأسبوع ويتخففون من تقاليد المال وأحكامه، ويقولون الكثير من الكلام العابر المبعثر غير الدقيق، كأنهم يجهدون في الاقتصاص من كل ثانية قضوها في الدقة

والحذر والتنبه وهم يحولون الأرقام من زاوية إلى أخرى ومن خزنة قريبة إلى أخرى بعيدة.

بالمناسبة: كانت هيفاء تنجز كل معاملاتها المالية في تلك الساعة بل في الدقائق الخمس الأخيرة منها، تجنبا لرؤية الناس والاحتكاك بهم.

في الساعة تلك يجلس عبّاس على كرسي يجلبه من أقرب مكتب فارغ، يجلس بعد نهار كامل من الوقوف والمشي. يجلس كأنه يشاهد عرضا مسرحيا عفويا يؤديه الموظفون والموظفات. يطرب لحديثهم العادي ولضجيجهم المفاجئ ويبتسم خلسة عند إطلاق النكات ويخجل حين تسمع موظفة مزاح الموظفين الذكور. ومن بين كل حديثهم كان يبدو عليه سرور واضح حين يبدأ الموظفون والموظفات في تبادل الأخبار الاجتماعية الملغمة بالنميمة والاستهزاء. كان المصرف لدقائق يتحول إلى جلسة صديقات أنجبن عشرات الأطفال ولم يلتقين منذ أيام المدرسة الثانوية. وعبّاس يستمع ويراقب مسرورا إلا في ذلك الخميس.

بدأ الأمر بتذمر موظف جديد من كثرة الزبائن في ذلك الخميس. تذمر عادي كان يمكن أن يمر ككل تذمرات الموظفين الجدد قليلي الخبرة. إلا أن التذمر تصاعد إلى مسارات جديدة، وبدأ الموظف الجديد بالحديث عن أشياء لم يفهمها عبّاس بوضوح. وما التقطه عبّاس كان قلقا وخوفا فقط.

أما الكلمات التي تعثر بها عبّاس حين أطلقها الموظف الجديد، فكانت من قبيل: انتظام الصفوف، ومعدل تدفق المراجعين،

والطاقة الاستيعابية للمصرف، اعتبارات المساحة، واعتبارات طاقة الموارد البشرية، تزايد معدلات الخطأ تحت الضغط، الطاقة الإنتاجية وشروط تحسينها، العلاقة بين العنصر البشري والمنظومة الآلية.... وغيرها من الكلمات التي التقطها عبّاس مفككة رغم صمت جميع العاملين والعاملات واستماعهم باهتمام لما يقول هذا الموظف الجديد المتخرج حديثا من جامعة أجنبية. قد يكون مهما الإشارة إلى أن الموظف الجديد قال كل ما قال بلغة خليطة بين الإنجليزية والعربية، وما جعل عبّاسا يلتقط الكلمات هو ذكرها بالعربية بعد أن ترد في سياق الحديث بالإنجليزية وبعد كلمة «يعني» ممطوطة الياء.

شعر عبّاس دون إرشاد من أحد أن كل هذا الكلام على صلة به وبعمله، ولم يفلح في تبديد شعور القلق الجديد عليه. بدا عليه التوتر، وفاقم توتره صمت العاملين والعاملات ونظرهم نحوه بطريقة فيها الكثير من الحذر أو المواساة أو المراعاة أو أي شيء من تلك النظرات الجديدة. ومعها نظروا إلى الموظف الجديد نظرات تأنيب أو أسف فهمها عبّاس ولم يفهم علاقته بها رغم إدراكه وجود العلاقة بينه وبينها.

لم يكن متوقعا أن يسأل عبّاس الموظفات والموظفين أي توضيح أو تحديد للمقصود بكلام الموظف الجديد، وما كان له أن يسأل الموظف الجديد بشكل واضح وسؤال محدد: ماذا تقصد بكلامك هذا؟ ولذلك انتهت ساعة تصفية المتراكم والمتأخر من العمل دون أي إقفال مؤثر أو واضح. وعلى الأغلب فقد نسي الجميع إلا عبّاسا ما حدث في الدقائق الأخيرة تلك.

أزهق عبّاس عطلته الأسبوعية تلك في التفكير، لا في طلاء الجدران، وأدرك بيأس أن تفكيره دون طائل، أو يشبه تفكير فتاة لم تسرح شعرها بإمكانية أن يكون ضحك شبان قريبين من طاولتها في المقهى تندرا على شعرها الهائج لمجرد أنها سمعت نتفا من كلام يمكن أن تنطبق على أي شيء.

طوال سنوات عمله تعامل عبّاس مع المصرف كمحيط حميم، كغرفة جلوس في بيت العمر اختار قطعها بعناية وعلق عليها الكثير من الذكريات، ولم يشعر يوما بأي تعكر أو ضيق. كان موضع وقوفه أشبه بأريكة مفضلة في المنزل الحميم، وكانت الأمتار المربعة الستة والثمانون حيث يضبط حركة المراجعين أقرب إلى مرتع الصبا حيث يلعب الفتيان أولى مبارياتهم في كرة القدم.

إلا أن ظهور الموظف الجديد في ذاك الخميس كان أشبه بوضع سرير طبيب الأسنان مكان الكنبة المفضلة، أو بناء مستشفى لطب الأسنان وسط ملعب الأطفال ومرتع الصبا.

لم يقدم التفكير لعبّاس أي مساعدة سوى حضه على حزم أكبر في التعامل مع مخاوفه الجديدة. وحرصا على عدم تأثير اضطرابه على بداية الأسبوع قرر مع نفسه أن حديث يوم الخميس إن لم يتكرر أو يضف إليه أي جديد، فهذا يعني أنه محض كلام عابر ولا يستحق القلق والاهتمام. إلا أن الأسبوع مر هادئا حتى خميسه. كأن بين الخميس وعبّاس ثأرا.

27

تقع الإذاعة في رأس عمارة حديثة من سبعة أدوار في نهايات شارع المكتبة من جهة الدوار الصغير القريب من مصلحة المياه، ذاك الشارع الحميم المطل على قديم رام الله.

ومن استوديو الإذاعة كانت هيفاء تطل عبر الواجهة الزجاجية على جزء وافر من رام الله المرتمية على سفح الجبل ببيوت مغطاة بسقوف قرميدية وعمارات جديدة تتسابق في القضاء على الفسحات الخضراء من الأشجار والعشب، وتتطاول من أسفل الوادي التائه بين حيي الماصيون وعين منجد. وحين ترسل هيفاء بصرها نحو الغرب لا يفصلها عنه إلا تلال صغيرة تضافرت في تضاؤلها لتمنح رام الله إطلالة على ما ينقصها، البحر الراقد في البعيد.

كان يمكن لتلك الإطلالة وحدها أن تدفع هيفاء للعمل بكل جد حفاظا على ذاك الموقع الفريد، هناك وعند انتصاف الليل تصغي لها المدينة كلها، وتنظر هي من الواجهة لترى البيوت كأنها آذان جميلة مسترخية تستمع لها، وحين تبتل الشوارع بالمطر وتلتمع إضاءة

الشوارع الصفراء والبيضاء، يبدو وكأن الآذان ارتدت أقراطا فضية قديمة مرصعة بجواهر ملونة. أما ضباب رام الله الكثيف الكثير فكان يحلو لهيفاء أن تراه وشاحا أو وسادة تغوص فيهما الآذان فيحجبها ولا يمنع السمع بل يعطيه مركزية أكبر وحضورا أرحب.

والضباب صديق هيفاء ودافعها للعودة في ساعات الفجر بعد البرنامج سيرا إلى بيتها في بطن الهوى. تمضي حتى نهاية شارع المكتبة تنظر في أشباح البيوت المهجورة وأشجارها المتمادية، وحين تبلغ الدوار تهبط الدرب يسارا متخففة من المشي الرزين، تنظر في الأنحاء الجميلة أو ما بقي منها، الكنيسة البسيطة ومنازل أواسط القرن الفائت، والبيوت الأخفض من الشارع، ومتنزه البلدية في نهاية الدرب.

تسير في سرعات متفاوتة على وقع الأفكار والذكريات، تمشي قدماها وتهرول ذاكرتها ويركض ذهنها، وفي الغالب يصل إلى فكرة الحلقة القادمة أو إلى زاوية أخرى لرؤية الأشياء المعتادة. والطريق لم تخيّب ظن هيفاء يوما، وظل مشيها يحمل رياحا تشرع أبوابا وتعبث بنوافذ.

بعد عبورها الطرق المألوفة إلى داخل الجزء الأقدم من المدينة، وتحديدا حين تقترب من الكنيسة الثالثة في سيرها، كنيسة رام الله القديمة، تنعطف يمينا لمواجهة محل خياطها العجوز، أعرف الناس بكل ما يستجد على سطح هيفاء وكيف يمكن التعامل معه بقطع قماش وافرة وبألوان شحيحة.

الاقتراب من المخيطة كان دوما نهاية الدرب الخفيف، يعقبه صعود طفيف ثم نزول أحدُّ، صوب العمارة حيث البيت، على كتف مفرق بطن الهوى الواسع ورياحه الآتية من الغرب المشرع كأنه مسرح.

في الأزقة المفضية إلى البيت لم تكن هيفاء تخشى السكارى في فجر يوم العطلة، ولا تساؤلات رجال الشرطة المريبة عن السائرة وحدها بهدوء نزولا من سفح إلى سفح.

حين كانت تمر في منتصف الطريق من أمام بيت عبّاس لم تكن تعرف أن النائم منذ ساعات عن برنامجها وعنها مقبلٌ على أيام مطلية بخليط بائس قاتم من أردأ أنواع الطلاء وأرخصه.

28

في الخميس التالي كان كلام الموظف الجديد أوضح بكثير، ويمكن تلخيصه في عبارات يفهمها الجميع: هنالك آليات جديدة لضبط حركة الزبائن والمراجعين في المصارف. طرق جديدة فعالة ومنتشرة حول العالم ويشهد لها الجميع بالكفاءة وتراعي طاقة العاملين وتضبط إيقاع حركة الزبائن ومعدلها.

أدرك عبّاس أن شعوره أصدق من تفكيره، وقبل أن يغزوه القلق والتوتر أطلقت موظفة عبارة قاتلة: صحيح، أخبرتني زميلة أن بعض البنوك في المدينة ستعتمد الآلة التي تتحدث عنها بداية الشهر المقبل.

«عن ماذا يتحدث هؤلاء؟ ماذا يريدون بالضبط؟ لماذا يؤذيني كلامهم دون أن أفهمه؟ ماذا يقولون وماذا يقصدون؟! لماذا لا ينشغلون في إتمام عملهم المتراكم بدل الحديث كالعجائز المعتوهات!! لماذا أظل هنا في هذه الساعة دون أي مهمة واضحة؟ ماذا أفعل هنا في ساعة لا زبائن ولا مراجعين فيها؟!

يمكن أن تكون هذه هي الأسئلة التي دارت في ذهن عبّاس ودفعته للخروج باضطراب واضح لحظه الجميع بعد انتهاء الساعة المشؤومة.

ظل عبّاس في المقهى حتى انتصاف الليل، لم يلحظ المغيب ولا إنارة الشوارع، ولم يسمع أصوات الأبواب الحديدية وهي تغلق في شارعه، ولم يتنبّه لتحيات المساء وتمنيات النوم الهانئ والصباح الجميل المتبادلة بين الآوين إلى بيوتهم بعد يوم عمل طويل.

أخلف عبّاس مواعيده، وكسر روتينه لأول مرة، دون وعي ولا إرادة. كل ما فيه يستشعر خطرا قادما وتهديدا غير مسبوق ولا متوقع.

لم يوقظه من حيرته إلا صبي المقهى ينقر على كتفه ويقول له إن المقهى سيقفل والساعة قاربت الثانية فجرا. كان عبّاس غائبا ولم يسمع شيئا من نكات العجائز في ليلة الخميس تلك. كانوا يستذكرون ليالي شبابهم بالنكات الجنسية والمماحكات الوقحة. ويظلون على تلك الحال حتى تنهار قواهم وتطلب أعضاؤهم النوم. وفي ليالي خميس حافلة كانوا يمررون زجاجة عرق كبيرة إلى داخل المقهى ويغدو سكبه أمرا واقعا على صديقهم صاحب المقهى، فيشربونه بمعيته ومعية ليلة الخميس التي لم يبق منها إلا التندر والذكريات. فوّت عبّاس كل هذا وهو سابح في تفكير مرتبك، وغاب عن رفاق المقهى.

لا يمكن لأحد الجزم بالكيفية التي قضى بها عبّاس يومي عطلته، إلا أن الواضح أنه تأخر عن العمل صبيحة يوم الأحد لساعة وعشرين دقيقة، تنبّه في آخرها بعض الموظفين إلى أن عبّاسا متأخر.

في تلك الساعة والعشرين دقيقة كان عبّاس يجوب مصارف المدينة مصرفا مصرفا، ومع كل عبور إلى بهو فرع من فروع المصارف الأخرى كانت حالته توغل في سوئها.

فبعد أن مر على مصرفين مرورا عاديا، توقف أمام الثالث على حافة الطريق ينظر إلى الداخل دون أن يتقدم، يختلس النظر كطفل خائف من عقاب أمه. يريد الدخول ولكن التردد يبني بينه والباب الزجاجي أبوابا مقفلة غير مرئية.

دفع نفسه بكل قوة وإصرار محاولا قطع الطريق على التردد والقلق، نظر مليا إلى صفوف المراجعين في صباح يوم العمل الأول في هذا الأسبوع، كانت منتظمة ومنسابة بهدوء. ينظر كل صاحب مهنة إلى منتج مهنته بعين أخرى، ولذلك ازداد قلقه، واقترب أكثر.

خلال الدقيقة التالية تنفس عبّاس أحد أطول أنفاسه وأكثرها تقطّعا وتهدّجا. عند الزاوية على يسار الداخل إلى المصرف، هناك حيث يُعرّج الناس فور دخولهم من الباب الرئيس للحظات معدودة، ثم يتوجهون إلى صفوفهم المنظمة أمام الموظفين، هناك رأى عبّاس مستقبله المجهول مجسّدا.

29

الحلقة الثلاثون

ما جرى بعد الحلقة الثلاثين كان أهم منها بكثير.

لم ينتظر مهندس الصوت خروج هيفاء من الاستوديو بعد إنهاء حلقتها، أسرع وفتح الباب وسألها إن كانت تعلم بما حصل أمس في الإذاعة.

بالتأكيد لم تكن هيفاء تعلم، فهي منذ دخولها الإذاعة لأول مرة وحتى هذا اليوم، لم تتحدث مع أي من العاملات والعاملين واقتصر تواصلها على المدير ومهندس الصوت، حتى أنها وجهت لوما شديدا وعتبا حادا لمدير الإذاعة حين فوجئت قبل حلقتها الثانية بتجمع مجموعة من الموظفين والموظفات في الإذاعة في تلك الساعة المتأخرة. كان واضحا أنهم يريدون رؤية المذيعة الجديدة ذات الصوت الذي ملأ المدينة من حلقة واحدة. انزعجت هيفاء كثيرا وقتها، لأسباب كثيرة والمفترض أنها صارت معروفة ومفهومة. المهم أنها باستثناء ذاك اللقاء غير الودي لم تتواصل أبدا

مع أي طرف في الإذاعة. وبدا واضحا بعدها أن المدير يوفر حماية ما لها ممن يريدون مقابلتها ومعرفة المزيد عنها، وتحديدا أعضاء مجلس الإدارة والمالكون.

«اليوم انكشف أن مذيعة برنامج الصباح تدبر اتصالات مزيفة لبرنامجها، المدير يعلم، والكل يتحدث عن الفضيحة، منذ أشهر وهي ترتب هذه الاتصالات»

ظلت هيفاء صامتة أمام مهندس الصوت وهو يخبرها بفرح طفولي وكأنه يفشي سرا مبهجا. وحين رأى صمتها وخلو وجهها من أي تعبير قابل للتفسير، ضبط انفعاله وتابع بصيغة محايدة:

«هذه الأمور تحصل في الإذاعة ولكنها بالغت كثيرا وخدعت المدير ومجلس الإدارة والجميع. قد تستقيل قبل أن يطردوها. لا أدري».

لم تنطق هيفاء، وبدت مسحة حزن أو انزعاج على وجهها، كأن الأمر يعنيها أو يعني شخصا يعنيها، وليس تلك المتبجحة التي حاولت إيذاء هيفاء بطرق عدة وبدسائس رخيصة.

انسحبت هيفاء بذهن غائب تماما، خرجت مسرعة من الإذاعة ولم تلتفت لعرض حارس البناية إيصالها إلى بيتها بسيارته. كأن سرا ما انكشف أمامها أو أن غشاء انقشع عن عينيها حين سمعت ما قاله الشاب.

مشت الطريق الطويل إلى بيتها دون أن تلتفت لشيء، لم تنتبه إلى إغلاق أحد الشوارع الرئيسة التي تعبرها وانحرافها دون وعي لشارع فرعي وإكمالها الطريق في ذاك الفجر الدافئ.

كانت تمشي على وقع مفاجأة مربكة، كيف يمكن أن تصل تلك التي كرست نفسها سيدة أولى لإذاعات المدينة لسنوات طوال إلى هذا الحال؟ أي مسار بائس يوصلها إلى تلفيق اتصالات وعلى مدار حلقاتها اليومية؟ ماذا ستفعل الآن؟ ماذا يمكن أن تتعاطى من أدوية ومهدئات أكثر من تلك التي تتعاطها أصلا؟ هل يمكن أن يختفي كل هذا يوما؟

لم تختلف هواجس هيفاء ومخاوفها عن تلك التي تنتاب المستجدات والمستجدين على أي مجال حين يواجهون حقائقه الراسخة. تمل الشهرة سريعا ممن تمنحهم نفسها، وتفضّل إلقاءهم بطريقة درامية.

كل هذا تعرفه هيفاء إلا أن مواجهته شيء آخر، يمكن أن تتحدث عنه طويلا، إلا أن رؤيته أمامها منحه غرابة المرة الأولى وذهولها.

من البديهي أن كل تفكير هيفاء بمذيعة الصباح لم يكن إلا تفكيرا بنفسها بالدرجة الأولى. ولا يمكنني إنكار أنني لاحظت هذه الصفة في هيفاء في مراحل مبكرة. هي تفكر بنفسها من خلال الآخرين.

وإن أردت تتبع شبكة تفكير هيفاء بعد حلقتها الثلاثين وفضيحة مذيعة الصباح، فبإمكاني القول إن الأمر انتقل إلى تقاطع تجنبته هيفاء طويلا، والتقاطع هذا هو التقاء عدة أسئلة لم تجب هيفاء عليها. أسئلة من ذلك النوع المتصل بجوهر الحياة ومركزها، أسئلة لا ترتبط بزمن أو مكان، بل هي ملحة دوما وحاضرة في كل لحظة. وما فعلته هيفاء مع أسئلتها تلك يمكن اختصاره في أنها حاولت كما

يفعل غالبية الناس التعايشَ معها انطلاقا من استسلام محدد؛ لا يمكن الحصول على إجابات لكل الأسئلة.

الحاجة للحصول على إجابات لا تغدو حقيقة دوما، قد تكون مفتعلة إلى حد بعيد، وهيفاء تدرك ذلك على الأغلب، ولذلك اختارت العيش مع الأسئلة دون إجابات، بدل الانشغال عن العيش بالبحث عن إجابات للأسئلة.

ولكن الاعتقاد بإمكانية العيش دون الانشغال بتلك الأسئلة يتزعزع عند محطات العيش نفسه، أليست أسئلة متصلة بجوهر الحياة!

واحدة من تلك المحطات الخاصة بهيفاء كانت في هذه الليلة، ليلة معرفتها بفضيحة مذيعة الصباح.

ودون عناء التفكير والغوص فيه، يمكن توقع موضوع سؤال هيفاء الأهم، صوتها بالتأكيد.

أوصلها التفكير بمصير مذيعة برنامج الصباح وتهاويها بعد كل المجد الذي حققته، إلى نفسها ومستقبلها وسنواتها القادمة، والتفكير بمستقبلها أعادها إلى حاضرها وحاضرها قذف بها إلى ماضيها، وكل هذا التراشق كان يضع صوتها في قلب كل شيء.

صوتها هو ما غيّر كل هذه المسارات وحوّلها، وهو الذي خلصها مما كانت فيه ووضعها في الحاضر الحافل هذا، وهو القادر على تحديد المستقبل. بدا لها أن صوتها هو الفاعل الأهم في حياتها.

حين لا يكون لك يد في وجود أهم فاعل بحياتك تشعرين دوما بتهديد ما، خوف أو قلق دائم من أن ما أعطي لك قد يؤخذ منك، وأنا ما ملكته دون عناء قد يختفي في لحظة.

لم يكن صوت هيفاء وليد تعبها وجهدها واجتهادها، كان هبة ما، حظا أو قدرا أو هدية من الغيب أو الجينات، ولذلك كان التفكير في فقدانه سؤالا حاضرا دوما وتحاول هيفاء التعايش معه، وأهم مقومات التعايش معه، التوقف عن التفكير في ما قد يحدث أو كان سيحدث لو أنها فقدته أو لم تمتلكه أصلا، و«التوقف عن التفكير» عبارة جوفاء لا تعني شيئا، وهيفاء تفهم هذا تماما.

التفكير هو صوت قادم من داخلنا، والصوت القادم من الداخل لا يمكن إسكاته، بعكس كل الأصوات الآتية من الخارج. يمكن لهيفاء أن تتحدث طويلا عن هذه الجزئية، وعن كل جزئية تتعلق بالصوت، ولأنه مساحتها المعروفة المألوفة أدركت هيفاء أن مواجهة الصوت القادم من الداخل أجدى بكثير من محاولة الهروب منه، تحديدا إن كان فيه الكثير مما نخاف ونهجس.

حاولت هيفاء مراوغة أفكارها وإقناع نفسها أنها طورت صوتها وصقلته ودربته، وبذلت في ترويضه وضبطه وتكثيفه كل وقت وطاقة وعزيمة، إلا أنها في قرارة نفسها تعلم جيدا أن كل ما فعلته كان لاحقا تابعا هامشيا إزاء صوتها الذي ولد معها ثم انولدت كل مسارات حياتها منه.

ماذا كان يمكن أن تكون هيفاء لولا صوتها؟ حالة أخرى من حالات الخالة؟ كبيرة العاملات في مأوى العجزة؟ أو ربما مجرد مستمعة تنتظر برامج الليل وتلاحق أصواتا جميلة وأوهاما!

يشبه الأمر ما حاولتُ دفعَ هيفاء للحديث فيه مرارا، كيف نتعامل نحن النساء مع جمالنا حين يكون الفاعل الرئيس في حيواتنا، حين يشرع لنا كل الفرص والأبواب، وندرك جيدا أنه سبب ما نحن فيه من سعادة ووفرة خيارات، وبالتأكيد ندرك أنّ لا يد لنا فيه ولا جهد.

لم أتوقع إجابة هيفاء الوحيدة على محاولاتي المتكررة لإثارة هذا الحديث، كأنها توقعت أو تخيلت أنني أشير إلى صوتها بطريقة مواربة، فقالت بنبرة حسم لإنهاء الموضوع: «لا مشكلة عندي في من يستخدمن جمالهن لتحقيق كل ما يردن، ولا يزعجني الأمر أبدا، ولا يمكن أن أنتقد سلوك أي واحدة منهن. أنا أفهم هذا الاستخدام العملي للجمال كرفض للواقع الذي يعطيه كل هذه الأهمية. في أحيان كثيرة نُعبّر عن رفضنا لشيء ما بالمضي به حتى آخره، هن لا يستخدمن جمالهن وأنفسهن، هن يستخدمن ويستغللن المنطقَ الأعوج نفسه الذي لا يراهن إلا من خلال أشكالهن».

بالطبع إجابة من هذا النوع ليست وليدة لحظة سؤال، بل اختمار أسئلة عديدة وتفكير مسهب شغل بال هيفاء ويشغله.

حتى إن كانت هيفاء لا تشعر بأي حرج أو نقص في كون كل ما تحققه، حققه صوتها الذي وهبتْه دون جهد ولا عناء، إلا أن ذلك لا صلة حقيقة له بخوفها من فقدان كل شيء إن فقدت صوتها. كانت تعيش هواجس ملكة جمال لم يعد لدى جرّاح التجميل ما يقدمه لها لتراوغ به الزمن أو تحتال عليه. شعرتْ في تلك الليلة بشيء يشبه مشاعر ملكة جمال تخرج للمرة الأخيرة من عيادة جرّاح التجميل.

كل هذا كان فارقا، إلا أن الأهم هو شعور هيفاء لأول مرة أنها بحاجة لشيء آخر غير صوتها تطمئن إليه، شيء آخر يخفف من شعورها بأن حياتها معلقة بشيء واحد، بصوتها.

شعرت هيفاء أن تعلق الحياة كلها بشيء واحد، قد يساوي في إرباكه واضطرابه، عدم وجود هذا الشيء أصلا.

30

مشكلة عبّاس الذهنية تتلخص في أنه غير قادر على تنظيم هواجسه وترتيبها داخل أسئلة محددة أو مستويات تهديد واضحة. هواجسه هلامية يمكن وضعها تحت عناوين عريضة لا تفصح عن شيء. من تلك العناوين مثلا، سهولة الاستغناء عن عبّاس، لا يقوم عبّاس بمهمات نوعية لا يقدر سواه على فعلها، يمكن أن يقوم كثيرون بمهمات عبّاس، هنالك أساليب أكثر كفاءة للقيام بمهمات عبّاس.

كانت تلك هواجس يمكن أن ترد في خاطر عبّاس لو فكر فيها من قبل وهو يرتب صفوف العملاء في أي يوم عمل عادي. إلا أن وجود منافس واضح محدد، وبدأ يستعمل في مصارف المدينة كان بمثابة ضربة قاضية ستجعل التفكير بلا معنى. وما زاد الأمر تعقيدا أن عباس من صنف البشر الذين يتقنون تحويل الهواجس إلى وقائع، ويتعاملون معها كأنها نزلت بهم فعلا.

فكر عبّاس بالتوجه إلى مدير المصرف وسؤاله إن كانت هنالك نية للاستغناء عنه وتسريحه من العمل، وعزم على التوجه إلى المدير

بعد أن أنهكته الهواجس ولم يتوفر له أي صديق أو زميل يناقش معه الأمر ويصرح له بالهواجس فيعينه على التعامل معها.

ما لا يدركه عبّاس أن محاولاته قطع الطريق على الهواجس تساهم في تجسيدها وتحيلها إلى واقع خالص يتطلب مواجهة. فسؤاله للمدير عن إمكانية الاستغناء عنه سيجعل المدير يفكر بالأمر ربما لأول مرة، وهو بذلك يحول هواجسه هو إلى أفكار على طاولة المدير. وستكون تلك مغامرة دون طائل إن لم يكن لدى المصرف أي نية للتخلي عن عباس تحت أي ظرف. وسيفاقم عبّاس من مأزقه إن ظهر أمام المدير كموظف يمكن الاستغناء عنه، أو يمكن استبداله. يضاف إلى ذلك أن أي موظف يوحي لمديره أنه يتوقع أن يتم الاستغناء عنه فهو بذلك يسهّل على المدير مهمة مفاتحته في الأمر لو كان واردا. من السهل جدا التعامل مع موظف يعتقد أن أيامه في العمل باتت معدودة، في حين تبدو ورطة محكمة مواجهة موظف لم يرد في خاطره للحظة أنه يمكن الاستغناء عنه.

ولكن وإن تم النظر إلى الأمور من جهة أخرى فإن حصول عبّاس على طمأنة أو ضمانة من المدير مفادها أنهم لن يستغنوا عنه أو يسرّحوه سيقطع الطريق على هواجسه بالتأكيد. إلا أن ذلك لم يكن هو المحكّ بالنسبة لعباس. عبّاس يخشى خسارة وظيفته هو تحديدا، ولا يفكر بالوظيفة بالمعنى العام، يخشى خسارة وظيفته كمنظم لحركة العملاء في المصرف وضابط لها.

لا يريد القيام بأي مهمة أخرى بل لا يتقن القيام بأي مهمة أخرى، ولن يحتمل أن يوضع في مكان ثان في المصرف ليقوم

بمهمات جديدة، كان الأمر أشبه بإهانة لكل شيء فعله منذ دخل المصرف موظفا للمرة الأولى. وبالتالي فالإجابة الوحيدة التي ستطمئنه إن قالها المدير بوضوح هي: «لن نستغني عنك يا عبّاس والمصرف لن يعتمد أي وسيلة أخرى لتنظيم حركة العملاء في المصرف».

كان الحصول على إجابة بهذا الوضوح شبه مستحيل، ولذلك أنقذ عبّاس نفسه جزئيا وقرر الانتظار، دون أن يعرف انتظار ماذا بالضبط. وبدأ منذ ذلك اليوم أكثر انشغالا بحديث الموظفات والموظفين والأخبار التي يتناقلونها.

خلال ذاك الأسبوع أخطأ عبّاس لأول مرات في عمله، غفل عن بعض الاضطراب في ترتيب العملاء والمراجعين، وتشاجر مراجعان دون أن ينتبه لهما ما اضطر أحد الموظفين للتدخل، ولم يلحظ أن موظفة أغلقت حاسوبها ونافذتها وظل يوجه العملاء والمراجعين صوب نافذتها المغلقة.

لاحظ العاملون إضرابه، ودون ذكاء أدركوا أن الأمر متصل بحديث ذاك الخميس. بعدها اختلط المزاح بالجد، وبدأ الموظفون والموظفات بإطلاق أسئلة موجهة للموظف الجديد تحمل إشادة مبطنة بالمقترحات التطويرية التي طرحها سابقا. ومع كل اضطراب يلمحه الموظفون على وجه عبّاس تزداد محاولاتهم ممازحته وإغاظته عبر التشديد على أهمية مواكبة أحدث الأساليب في ضبط المراجعين في المؤسسات المالية أو أي مؤسسات عامة.

خلال حفلات المزاح غير المحسوبة تلك صرحت موظفة بأفكار من قبيل أن الثقافة السائدة فوضوية ولا بد من التعامل معها

بصرامة، وقال موظف وهو يرتب رزم نقود ويضعها في خزنة خلفه إنه يجب اعتماد الأساليب الحديثة لأنها تنصف العاملين والعاملات وتوضح بالأرقام عدد العملاء وحصة كل موظف من المعاملات وحجم الجهد الذي يبذله مقارنة بالآخرين. أما الملاحظة الأكثر لؤما فكانت من الموظف الجديد نفسه حين قال: ونحن كلنا نريد أن يرتاح العم عبّاس قليلا!

كانت تتلاشى تلك الجولات من الضحك واللغز واللمز سريعا ولا يفكر بها إلا عبّاس. وخلال أيام أصبح عبّاس كأنه غيره، دائم الشرود والتفكير والقلق، ودائم إساءة تفسير كل ما يسمع، وبدرت منه سلوكيات عدائية تجاه بعض الموظفين، وتجاهل للتحية إن ألقتها عليه موظفة من اللواتي شاركن في إزعاجه. بدا الكل متورطين بالنسبة لعبّاس، وبات يقضي الكثير من الوقت في المطبخ الصغير يتصيّد الأخبار من موظفي الخدمات وعاملات النظافة، وأي فم ثرثار في المصرف، وما أكثرها.

ما لم يكن يعرفه عبّاس، وما كان له أن يعرفه أصلا، أن ملاحظة عابرة وردت قبل أكثر من خمسة أشهر في نهاية تقرير مطوّل قرأه المدير الإقليمي للمصرف خلال رحلة استجمام في منتجع في عاصمة استوائية، توصي باعتماد الآليات الجديدة التي أقرتها لجان المواصفات والمقاييس، إثر اجتماعها بلجان استشارية تابعة للمصرف، ضمن الرؤية التطويرية لإدارة الموارد البشرية والعلاقات العامة في كل فروع المصرف في الإقليم.

وما لا يعرفه عبّاس أيضا أن بندا واحدا هامشيا من عشرات البنود في ذاك التقرير المتعلق بالآليات التي أقرتها اللجان تلك، متعلق بخوف عبّاس القادم ومنافسته القادمة وهي منتصرة سلفا. والأهم أن المدير الإقليمي حينها لم يشغل نفسه بقراءة تلك البنود، بل وقّع عليها وهو منشغل البال يمتّع نظره بقفزة زوجته الشابة في بركة السباحة أمامه.

31

هل يمكن تفسير نوبات التفكير الطويل التي لازمت هيفاء في تلك الفترة من مدخل مناخيّ؟ أقصد دنو الصيف الثقيل على هيفاء؟ قد تبدو مبالغة وصف صيف رام بالله بالصيف، أي ذاك الذي يعرفه الناس في العادة، عمليا ما تعيشه رام الله ليس صيفا بكل معنى الكلمة، يمكن اعتباره نسخة مخففة. ولكن ارتفاع الحرارة لأي حد يدفع للاكتفاء بقطعة قماش واحدة على الجسد، كان يعتبر صيفا مزعجا بالنسبة لهيفاء. ولتوضيح الأمر قد يكون مفيدا الحديث عن هيفاء والشتاء.

الحلقة الأولى من هاتفها العمومي كانت في غرّة شتاء رام الله، فصل مستمعي الليل الطويل، الباحثين عن أي حليف ضد الوقت. سبب آخر ساهم في صعود هيفاء وبرنامجها مع انطلاقته. وهيفاء لأسباب سابقة على البرنامج والإذاعة تحب الشتاء، أو على الأقل تفضله، فصل الملابس الأكثر، والتعرق الأقل، والعزلة المبررة، والكآبة المألوفة. في الشتاء لا تسألها أعين الناس لماذا تدفن نفسها في أكوام الثياب، ولن يحدق أحد في أعلى رأسها حيث قبعتها الصوفية السوداء الكثيفة.

لم تغادر هيفاء بيتها يوما إلا والقبعة تعتلي رأسها، وفي الصيف يغدو نظر الناس إلى القبعة مهينا بطريقة لا تحتمل، إلا أن هيفاء تحتمله، لأنها تعرف أن النظر إلى ما تحت القبعة سيكون أكثر إيلاما وإهانة.

تحت القبعة شعر هيفاء بالتأكيد، خفيف كأن مرضا ما أصاب رأسها، شحيح حتى تكفي بضع قطرات من الماء لتحويله إلى خطوط سوداء متعرجة كأن طفلا رسمها على صفحة رأسها البيضاء. كأنه صلع يُدارى بما يزيد وضوحه.

كل الأوصاف والنعوت والتعابير المتصلة بالكثافة والقوة والحيوية والانتعاش والتموج والترامي والاحتشاد، تلك التي تكثر في إعلانات صبغات الشعر والشامبوهات، تقع على جهة مقابلة بعيدة أيما بعد مما يمكن أن يسمى «شعر» هيفاء. كان يصلح لعجوز تدنو من إقفال قرن من السنوات، لا لشابة تدور حول ثلاثينها.

كانت القبعة، ولم يكن الشعر المستعار خيارا، تحديدا عند هيفاء، ففجاجة الواقع أهون من تحسينات زائفة، وهيفاء ترى شعرها أكثر اتساقا معها ككل، من شعر مستعار. ربما بدت القبعة مراوغة مشروعة، أما الشعر المستعار فتزييف سافر.

وباستكمال التحليل المناخي لحالة هيفاء، يمكن القول إن حمل الربيع لرائحة الصيف ترافق مع استقرار برنامجها وتزايد دخلها من المكافآت التي يودعها مدير المصرف في حسابها كلما ازداد الخط الماسي التماعا، ومن العلاوات التي كان يضيفها مدير الإذاعة إلى

راتبها تجنبا للحظة تطلب فيها هيفاء نسبة من عوائد الإعلانات المتكالبة على ساعة هاتفها العمومي.

حينها -لا يمكنني الجزم تماما- فكرت هيفاء بفعل شيء بجسدها، شيء من تلك الأشياء التي باتت رائجة، بل وضرورية لدى كثيرات. من زاوية الضرورة كانت هيفاء تجسيدا لها في هذا السياق.

مرة أو مرتين فكرت هيفاء بالأمر بصوت عال. دفعت أمامي على الطاولة بكتيّب ترويجي لعيادة جديدة في رام الله تعالج مشاكل السمنة، كأنها تحاول رصد رد فعلي على وجود كتيب من هذا النوع لديها، إلا أنني لم أعر الأمر أي رد فعل مميز، كأن الكتيب ليس إلا أحد كتيبات عروض السينما الشهرية التي تجلبها هيفاء بالعشرات مع أنها لم تدخل السينما يوما.

بعدها بعدة أيام، تنبّهتُ وأنا أبحث عن صفحات جريدة أضعها تحت أطباق الطعام على الطاولة أن مربعات ومستطيلات وأعمدة مفرغة من صفحة الجريدة التجارية، سألت نفسي عما يمكن أن يلفت نظر هيفاء إلى درجة تدفعها لاقتطاعه من الجريدة، ولم تتأخر الإجابة ليلتها فقد عثرت على القصاصات ملقاة في سلة المهملات المزركشة قرب التلفاز.

إعلان عن عيادات ومراكز تجميل، طبيب خبير عائد إلى الوطن ليزرع الشعر لأبنائه وبناته، نباتات تنمو في جبال بعيدة تتوعد كل البثور والإفرازات الدهنية، مركبات ومستحضرات ونساء مبتسمات وأطباء وقورون، وذاك الشريط المرقم الملتف على خصر لا يحتاجه، ونماذج عديدة من «قبل/ بعد».

لا يغدو أي من هذا غريبا على أي امرأة، ولا يحمل وجود القصاصات في سلة مهملاتها أية دلالة أو قيمة، إلا إن كانت سلة مهملات هيفاء.

يمكن تخيّل كيف فكرت هيفاء من لحظة قراءة الإعلانات حتى استقرارها مع المهملات. اقتطاع تلك القصاصات يعني أنها هيفاء فكرت وربما قررت، على الأقل مبدئيا، أو أجّلت التفكير الجدي. ووصول القصاصات إلى سلة المهملات قد يعني أنها طردت الأفكار تلك ونفتها، بعد مناظرة ذهنية بينها وبينها.

مجرد تفكير هيفاء بالأمر كان كافيا لدفعي نحو تصرف متهور، وضعت الصفحة المقصقصة على الطاولة وفوقها الأطباق، كأنني أقول لها إنني انتبهت لهذه الاقتطاعات الموحية، وهيفاء بذكائها لم تفوّت الأمر. انتظرت حتى انتهائنا من عشائنا وذكرت أن مدير الإذاعة أخبرها أن عيادات تجميل ووكلاء مستحضراته يحاولون شراء دقائق إعلانية قبل برنامجها وبعده.

لا صلة حقيقية بين تصريحها وما لمّحتُ إليه عبر وضعي الصحيفة المقصقصة أمامها، إلا أن حديثها كان يقطع الطريق على أي استفسار أو حتى مماحكة. لم تترك الصمت يتفشى إلى جلستنا فسألتني عن رأيي بهذه الإعلانات، أي تلك التي قد توضع قبل برنامجها وبعده، وفهمت أنها تسأل في اتجاه وتريد إجابة في اتجاه آخر، فقلت بكل الحذر الممكن إن ما نفعله بأجسادنا هو خيارنا الخاص والشخصي دوما.

كانت إجابتي لا توحي بشيء ولا تدفع الحديث ولا تشجع عليه، فتفشى الصمت دون أي معيقات.

هل كان ينبغي عليَّ تشجيعها؟ هل كانت ستفهم تشجيعي على أنه إشارة إليها هي وحاجتها لكثير مما تحويه الإعلانات؟!

حين تنشغل النساء في إظهار مكامن قوتهن، تنشغل هيفاء في إخفاء ضعفها، وعدم ظهوره لا يعني أنه غير موجود، بل إنه يتضخّم ويتمدد كورم خبيث تحت محاولات إخفائه.

والإخفاء والتخفي ظلّا حاضرين مع هيفاء دوما، قبل برنامجها ومعه، ظلت الحاجة للانسحاب من أي مجال بصري لرجل أو امرأة أمامها، أو محو أي صورة تظهر فيها.

وعلى سيرة الاختفاء والانمحاء والصور، يجب أن أستدرك وأقول ما تأخرت في قوله:

حاول كثيرون مقابلة هيفاء أو رؤيتها أو مجرد الحصول على صورة لها. لم تكن لهيفاء أي صورة متوفرة في أي مكان، لا على شبكة الإنترنت ولا على موقع الإذاعة الإلكتروني وكل ما كتب عن برنامجها في الصحافة كان دون صور. ورفضت التعاطي من تلك الدعوات التي كانت تصل إلى الإذاعة لطلب إجراء مقابلة صحفية معها، أو محاولة التواصل معها بأية طريقة.

لا تذكر هيفاء أنها وقفت أمام كاميرا لتلتقط صورة في حياتها إلا عند حاجتها لإتمام معاملة رسمية لا تكتمل إلا بالصور. وحين كان المصور يعطيها حفنة نسخ من الصور الصغيرة الرسمية كانت

تدس ما يزيد على حاجتها منها في حقيبتها كأنها تلقي بها إلى جوف العدم.

في حلقاتها الأولى بدا واضحا أن هنالك مهووسين يحاولون الوصول إليها إلا أنها كانت واثقة من حصانة أسوارها وإجراءاتها، وظلت غير عابئة بالجلبة التي يثيرها أولئك الذين لا يكلون من الاتصال على الإذاعة وإزعاج العاملين طلبا لأي سبيل يوصل إليها.

كانت واثقة أولا من أنها تتخفّى بشكلها، فهي حين خرجت من الإذاعة بعد حلقتها الثالثة تنبّهت إلى عدة سيارات وبعض المتسكعين في الشارع، كانوا كأنهم ينتظرون شيئا، كانت متأكدة من أنهم ينتظرونها، إلا أنها عبرت أمامهم بكل هدوء. ما كان يمكن لهم افتراض أن هذه التي تعبر الشارع خارجة من مبنى الإذاعة، هي التي جاء صوتها عبر الراديو قبل قليل.

ومع نجاعة تخفيها بشكلها، إلا أنها أدركت مقدار المقامرة في الاتكاء على هذا التخفي المكشوف، خاصة مع تكاثر إعداد الشبان والمتسكعين أمام الإذاعة خلال برنامجها وبعده. ولذلك فعلت ما تفعله في المصرف، اعتمدت مخرجا خلفيا للطوارئ، تماما كالنجوم والمشاهير. لم تكن صريحة حيال مخاوفها تلك، هل كانت تخشى من رؤية الناس لها وتعرفهم عليها بشكل مباشر؟ أم كانت تخشى فقدان تلك الحالة من لهفة الكثيرين لمعرفتها؟

شعرت هيفاء بحرارة الناس، حرارة شبان ورجال كثيرين ينتظرون ساعتها بشغف ورغبة، وشعرت بحرارة النساء والفتيات اللواتي يكررن حديثها كأنها نطقته عن ألسنتهن. كانت تعرف أن

كثيرين يتوقون للحديث معها ولسماع كلامها موجها إليهم وحدهم، كانت تعلم أن مدينة كاملة مشغولة بها.

ومع أنها كانت تقرأ يوميا مئات الرسائل ممن يمكن تسميتهم معجبين ومعجبات، إلا أن هيفاء لم يكن لديها من ستتصل به بعد نهاية برنامجها لتسأله إن كان سمعها، أو تجد منه رسالة قصيرة على هاتفها المحمول تحمل عبارة تشجيع أو تحية أو تغزلا عاديا بصوتها. كانت تفتقد ذاك الشخص الواحد الخاص بها، دون أن تصرح بذلك. كان جليا في ملامحها أنها تفتقده ولا تجده ولكنها كعادتها، تطوي حاجاتها تحت أكوام سميكة من اللامبالاة أو ادعائها.

هل كانت حقا بحاجة لذاك الشخص الخاص تحديدا وهي لديها الجميع، كل المدينة بكل آذانها؟!

«في أحيان كثيرة يبدو «الجميع» و«لا أحد» وكأنهما متساويان». هذا ما شعرت به هيفاء وتنهدت به على مسمعي بعد سبعة أشهر من برنامجها.

32

«أين عبّاس؟»

كان سؤال ذلك الصباح المختلف. ردده كل من في المصرف، وأول من جهر به كان المدير، ولم تكن هنالك أي إجابة واضحة. كانت الإجابة الصحيحة أوجع من أن ينطقها الموظفان اللذان يعرفان أين كان عبّاس في تلك اللحظات متواريا.

متى طُرِحَ السؤال بالضبط؟

بعد تصفيق العاملات والعاملين ومجموعة من الزبائن لمدير المصرف بعد أن أدى تلك الحركة البسيطة.

كبسة زر. واحد من ثلاثة. على سطح زجاجي لآلة معدنية واقفة عند مدخل المصرف. أقل من ثانية أخرجت الآلة من فمها الدقيق ورقة بيضاء تحمل الرقم واحد. ثم انطلقت اللوحات الإلكترونية فوق مكاتب موظفي المصرف وموظفاته تنادي على الرقم واحد، وتومض النقاط الحمراء داخلها بـ «واحد» واضح جدا.

تصفيق، ثم دعوة من المدير للزبائن والمراجعين للمشاركة في تدشين الآلة، ثم اندفاعهم طلبا للأوراق والأرقام الخارجة من جوف الآلة الجديدة اللامعة، ثم أرقام جديدة تنازع «واحد» المدير داخل الشاشات الصغيرة فوق مكاتب المصرف ومناضده ونوافذه.

هنا تحديدا جاء السؤال، متزامنا مع سير سلس من الزبائن والمراجعين خلف أرقامهم الظاهرة على الشاشات، قانعين منقادين لأوامر الآلة ورنينها عند تبدّل كل رقم.

33

قبل شهر من اليوم المشهود، العشاء السنوي والذكرى الخمسين لتأسيس المصرف، وصلت جميع العاملات والعاملين رسالة عامة على البريد الإلكتروني تحمل تفاصيل دقيقة لحفل المصرف القادم مع توضيح للأدوار المنوطة بالجميع. تعليمات من قبيل طبيعة اللباس والتحضيرات اللوجستية وعدد المرافقين الذين يمكن لكل موظفة أو موظف اصطحابهم، وإشارات إلى راتب شهر إضافي سيصرف لكل العاملين احتفاء بالمناسبة، وصولا إلى تعريف بلجنة الحفل وضرورة التزام الجميع باللجان الفرعية التي ستختارها لتنظيم الحدث الجلل بكل تفاصيله.

أمثال عبّاس من عاملات وعاملين، أولئك الذين لا يملكون بريدا إلكترونيا ولا حاسوبا وقبل ذلك مكتبا ليضعوه عليه، سلّمت لهم المذكرة الإدارية باليد، وتكوموا في المطبخ المسمى كفتيريا في جولة قراءة جماعية للمذكرة الإدارية الهامة. حينها جلس عبّاس يشرب فنجان قهوة دون سكر.

منذ وصول الألة وعبّاس يقضي أوقاتا طويلة في المطبخ غير آبه بصفوف العملاء والمراجعين المنتظمة بكفاءة عالية وغير المتأثرة به وبأبهه بها. كأنه قرر الانسحاب من أي مواجهة مع تلك الآلة منذ وصولها. وفي المطبخ يشرب دستات كاملة من فناجين القهوة التي تقيم ليله وتفاقم من بؤسه وقلقه وترقبه للحظة الفارقة المدشنة للاستغناء عنه وعن خدماته التي لم يعد يقدّمها.

يصبح المرء مثقفا، حين يبدأ بمقاربة مشاكله الخاصة جدا ضمن سياقات عامة، ويقترح لها أسبابا أبعد من تلك التي تخطر بباله أول الأمر. ولأن عبّاسا لم يكن مثقفا بهذا المعنى، لم ير في نفسه العاملَ الذي طردته الآلة من المصنع، ولم يستنتج أنه ضحية التقنية المتغولة على اختصاصات البشر ووظائفهم، ولم يقارب مشكلته بانحسار فرص المشتغلين بغير أذهانهم. لم ير الأمر أوسع من أزمة شخصية قوامها خسارته لوظيفته التي لا يعرف غيرها.

لم يشارك زملاءه وزميلاته بهجتهم بالراتب الإضافي المقرّ كرما للذكرى العزيزة على مالكي المصرف، ولم ينفعل لحديث عاملات النظافة وعمالها وحراس المصرف وسيارات نقل الأموال والمراسلين عن ضرورة شرائهم ملابس لائقة لهم ولعائلاتهم وتكلفتها التي قد تذهب بكل الراتب الإضافي. كأن الحديث كان عن مصرف آخر. وكل ما تمناه عبّاس لحظتها ألا توكل إليه أي مهمة في الحفل، وبدأ يفكر بذريعة للتهرب وعدم الحضور.

34

إن كان عنوان من قبيل «مذكرات العزلة» يليق بسيرتك الذاتية، أو كنتِ شعرتِ وأنت تقرئين نبذة عن «رهاب الجموع» أن مفردة «المصاب» الموجودة بالكتاب تعود عليكِ أنتِ تحديدا، فهذا يعني أنك ستشعرين بأعراض شبيهة لتلك التي انتابت هيفاء وهي تفكر باقترابها من مدخل قصر المناسبات حيث ينظم العشاء السنوي واحتفال المصرف بيوبيله الذهبي.

شعر عبّاس بأعراض شبيهة أيضا يضاف عليها تكثيف توتره المتعاظم منذ بدء الحديث عن الحفل الكبير. كان الشعور بإكراهه على حضور الحفل يزيد من تقارب اضطرابه مع اضطراب هيفاء.

وفي الحالات الشبيهة تعلن أعضاء الجسم الداخلية تحالفا فتاكا لا يعرفه إلا من اختبره، وعنوان هذا التحالف هو تحويل أرتال المشاعر والسيالات العصبية إلى حالة مادية قابلة للإخراج من الجسد. كأن الجسد بأعضائه يدرك الضرر الكامن في احتفاظه بكل هذه المشاعر والأحاسيس والمخاوف والتشنجات والتوترات، فيقرر أن الأسلم هو تصريفها بأية طريقة.

يفصح القلب عن حقيقة كونه أقوى عضلة في جسم الإنسان، كأنه يقول لحامله في تلك اللحظات أنت لم تعرفني من قبل، ومع طقس الوجيب المتصاعد تتنادى كل عروق الجسد لتؤدي دورها في جوقة القلب المحموم، عروق الرقبة واليدين وتلك المحيطة بالعينين وعرق بارز في جبين هيفاء، حتى العروق الصغيرة خلف الأذنين تقرر الانخراط في الحفلة، في تلك الحالات تكشف العروق عن مواضعها ومواهبها أيضا.

وعلى إيقاع الطرق والضرب تنفتح المسام الجلدية، كأن الإيقاع صفارة إنذار أو شيفرة سرية تعني أشرعوا كل المنافذ، فيبدأ العرق بمفارقة الجسد كأنه انحبس فيهلقرون. وهذه مأساة كبرى بالنسبة لهيفاء، فكيف إن كانت الحرارة أعلى في ذاك المساء، أو كانت تهوية القاعة الشاسعة أقل من المطلوب، أو شعر الجسد بفطنته أن حرارة مئات المدعوين تستوجب تشغيل نظام التبريد الذاتي بطاقة أكبر! كل هذا يعني أن ملايين ملايين الصنابير الصغيرة انطلقت على اتساعها تنضح العرق. لا يكفي أي وصف أو شرح لتبيان كيفومن أين تتعرق هيفاء في مواقف كتلك، وارتداؤها ملابس رسمية، شيئا يمكن وصفه بفستان سهرة، كان يعني ليلة سوائليّة هائلة.

مع كل ذلك تظهر التشنجات في الحركة، نسيان عضلات الذراعين والساقين أن الحركة انبساط وانقباض، وتوقفها فجأة عند الانقباض كأنها لا تعرف غيره. ثقل اللسان وتعثره عند نطق أي حرفين متقاربي المخرج، اصطدامه بالأسنان كأنها وضعت اليوم فقط إلى جواره، العضّات المتفرقة التي ينالها من الأسنان الجانبية،

شحّ اللعاب ما يحيل حركته احتكاكا خشنا ذا صوت واضح مزعج، بدل الانسياب المعهود. وبالتأكيد فإن أية محاولات لتعويض اللعاب الشحيح ببعض السوائل والمشروبات تعني انفجارا في مكان آخر، واضطرارا لقطع عشرات الأمتار أمام الجميع في الذهاب والإياب إلى دورات المياه.

وفي هذه المساحة وتحديدا في المناسبات الاحتفائية الفرحة، تتحرك عضلات الوجه والحنك في ساعة، أكثر من حركتها في سنة مضت، فتخفي الابتسامات الصغيرة خلف رقتها ولطافتها أثقالا هائلة تُعلّق على الحنك وتظل تتثاقل حتى تعبر الوجه صداعات متعاقبة كأنها استيقاظات فزعة من كوابيس ليال طويلة.

في حالات كثيرة تبدأ الأعصاب بإرسال أوامر خاصة إلى أعضاء الجسد، وإن صح افتراض أن اللاوعي هو محرك تلك الإشارات العصبية فإنها ستشير بكل قوتها إلى ما يحاول الشخص إخفاءه أو يعاني معه علاقة غير سويّة.

تتحرك أصابع وأيدي السيدات إلى مواضع في أجسادهن لم تستو علاقتهن بها، إلى الحاجبين غير المتماثلين، إلى بثرة حوّلها العبث بها إلى علامة ثابتة في الوجه، إلى الأرداف المنفلتة، إلى رقبة أطول من اللازم أو أقصر منه، إلى الشعر المصبوغ حديثا أو المقصوص على عجل، إلى ترهلات البطن التي رسّخها الحمل الرابع.

عند النساء تتوجه الإشارات العصبية اللاإرادية صوب مواضع مادية محسوسة، أما الرجال فتتوجه إلى مواضعهم المعنوية، إلى خيانات كثيرة، وكره مضمر، وحسد مفرط، وخوف من ضعف

القدرة أو عجزها. يبدون هادئين بلا إشارات محسوسة إلا حركة عينين نشطة جدا، يتكومون في مقاعدهم والسيالات العصبية تضرب بقاعا نائية من مواضعهم المتوترة غير السويّة.

من بين كل تلك الأعراض يبدو حضور الحكّة مركزيا. الحكة في تلك الأوقات كأنها تحت الجلد لا عليه، وكل محاولات هرشها بالأظافر أو أي سطح خشن لا تعني شيئا، وحين تختار الحكة مواضعها تختارها بعناية، باطن القدم الغارق في حذاء رسمي في مناسبة كتلك، أو تلك النقطة القصيّة في الظهر، ذاك الإثبات الصغير جدا على حاجة الإنسان لإنسان آخر. هناك حيث تستقر الحكات العارفة الدؤوبة.

ما لا تعرفه أعضاء الجسم على ما يبدو، أن التصريف الذي تأخذه على عاتقها يصبح هو بحد ذاته سببا لمضاعفة السيالات المعادية من مشاعر وأحاسيس واضطراب. ولا تنتهي الدورة الأقبح تلك إلا بالألم والأوجاع، وعدم قدرة الأعضاء على أداء مهامها فتتوقف، كأن زر تشغيل سري ظهر فجأة في مؤخرة الرأس وضغطه أحدهم.

ومشكلة توقف كهذا أنه يتأخر ويتأخر حتى يفقد قيمته كخلاص سريع من الدورة القبيحة، بل يبدو أشبه بتتويج مسرحي لاستسلام الجسد المستباح.

ولأن هيفاء تعرف كثيرا من هذه الأعراض واختبرتها في تجارب سيئة، ولأنها، وهي من هي، مؤهلة في كل مرة لأعراض أخرى أشد وأقسى، قررت الذهاب مبكرا إلى الحفل، أي أنها ستصل قبل أكثر من ساعتين على الموعد المكتوب في الدعوات.

ووصولها المبكر يعني مواجهتها لأكوام الناس والتوتر والقلق بتصاعد مخفف وعلى جرعات متباعدة، وهذا أفضل بأشواط من دخول القاعة ممتلئة حين لا ينشغل الحاضرون إلا برصد الداخلين وتسليط كل الأعين والأضواء عليهم.

وحين وصولها أبكر بساعتين لمحت عبّاسا جالسا في ركن بعيد، احتاجت لدقيق النظر مرات ومرات لتتأكد أنه عبّاس بتلك البدلة الرمادية والقميص الأسود والحذاء الأسود الرسمي جدا، كان كأنه غيره، ولولا دقة ملاحظة هيفاء لغاب عنها أن ذاك الرجل هو عبّاس.

حتى في هذه المناسبة بدا عبّاس حريصا على أن يكون أول الواصلين، أو أنه كهيفاء أدرك أن رؤية مشهد فزعه يتركّب ويتشكّل أفضل من مواجهته كاملا ودفعة واحدة.

كان يمكن لهيفاء الاقتراب منه وتبادل أي حديث، هذه وصفة مضمونة لتخفيف موجة الأعراض الضاربة التي ستصل بعد قليل، إلا أنها اختارت طاولة في زاوية بعيدة عن المنصة، قريبة من دورات المياه ولا تبعد كثيرا عن مخرج طوارئ. ومن مقعدها ولإزجاء الوقت ظلت تراقب الشيء الوحيد المميز في القاعة ولم يكن إلا اضطراب عبّاس في زيّه الرسمي الأنيق.

لا شك أن ساعتي الانتظار وساعة التأخير الحافلة بالوجوه والأشكال والأصناف والطبقات، كانت مناسبة اشتغل فيها عقل هيفاء بكل طاقته، ومن موقعها البعيد المراقب دارت في رأسها عشرات الأفكار الصالحة لبرنامجها. في مناسبات كتلك يختبئ أمثال

هيفاء في عالمهم الداخلي، ويحلو لهم تحويل الآخرين إلى مواضيع تفكير ونقد، هذه وصفة ثانية تفلح جزئيا في تخفيف الأعراض سالفة الذكر.

ضيوف المصرف كانوا من الفئات المصنفة في الجزء الأعلى من أي ترتيب شائع، اقتصادي كان أم اجتماعي أم سياسي أم ثقافي، يمكن القول إن «علية القوم» كانوا هناك، أو بمفردة أكثر عصرية، «النخبة».

مع تجاوز موعد انطلاق الحفل الكبير ضجت القاعة بكل ما فيها، الحضور الهائل حول الطاولات المرتبة والمليئة بالأزهار والهدايا، شعارات المصرف المجسمة بمعدن ذهبي والمحمولة على قاعدة خشبية مكعبة حفر على وجوهها الرقم 50، عشرات النادلات المبتسمات يخترقن الطاولات جيئة وذهابا، ومدراء المصرف ورؤساء الأقسام العليا ينتقلون من طاولة لأخرى يوزعون التحيات والقبلات، وفي الأجواء غابت موسيقى خفيفة خلف دبيب الحشد الكبير.

بين تلك النوعية من الضيوف، النخبة أو علية القوم أو من يتموضعون في أعلى سلالم الترتيب الاجتماعي، تمكن ملاحظة نوعية محددة داخل ذاك المجموع، أولئك الذين يجهدون في خلق الفوارق مع «العامة» والتأكيد عليها في كل حين، المتشبثين بكل ما يميّزهم عن مجموع الناس وتحديدا في مناسبات كهذه، يضطرون فيها للاختلاط بالقليل ممن يرونهم نقيضهم أي عموم البشر.

يظلون في حالة مراقبة ورصد دائمين للعامة وسلوكها وخياراتها وسماتها وتغيراتها، ليموضعوا أنفسهم مباشرة على الجهة المقابلة والنقيض المطلق.

للعامة انفعالاتها ولهم انفعالتهم، للعامة نمط لباس وحديث وشرب وأكل، ولهم النقيض التام، للعامة موسيقاها ولهم موسيقاهم، للعامة فنونها ولهم فنونهم. وحين تنزع العامة نحو خياراتهم يسارعون إلى التخلص من خياراتهم تلك، لا لشيء إلا لأنها لم تعد تحقق ذاك الفارق النوعي الواضح الصريح عن العامة.

والعامة هنا تعني الحشو، تعني أمثال عبّاس وموظفي المواقع الأدنى في المصرف، وتعني النادلات المتجملات والمبتسمات مقابل رواتبهن، وتعني زملاء وزميلات هيفاء الذين استقروا حولها على الطاولة البعيدة يراقبون مثلها. ومن موقعهم كان يمكنهم أن يروا عبّاسا واقفا في منتصف المسافة بين المنصة وباب صغير خلفي كأنه ينتظر شيئا ما.

35

حين كانت الفرقة الوطنية للموسيقى تعزف مقطوعة مهداة للمصرف في حفله المهيب، كان مدير المصرف يتحرك بانفعال بين مسؤولي قصر المناسبات ورئيسة النادلات وكأنه يتحقق من انتظام كل شيء، فنجاح الحفل يعتمد عليه كونه رئيس اللجنة المنظمة.

لم يكن في فقرات الحفل المدروسة أي تعقيد أو إرباك، بل يشبه المناسبات الكبرى حيث تكفي خطابات معدودة ويغلب عليها الاختصار، وتعزف الموسيقى كثيرا، ويعلن عن مفاجآت كبرى ومشاريع هائلة ومكافآت وترقيات واستعراض مالي وإداري، ثم يترك الحيز الأوسع من الوقت لتناول الطعام بكل مراحله مع العناية البالغة بتوفير كل أصناف الشراب والعناية أيضا بطرق تقديمه.

يمكن الحديث طويلا عن الحفل الكبير بتفاصيله المملة والطويلة جدا على هيفاء وزملائها وزميلاتها الذين استهلكوا حصيلتهم من المجاملات في الساعة الأولى من جلوسهم إلى الطاولة، ولم تكن لديهم بالطبع مخططات مبيّتة للتربيت على كتف

أحد المدراء وتملّقه، أو تمرير سيجارة لأحد أعضاء مجلس الإدارة أو إشعال سيجارته أملا في أي حديث واعد. إلا أن ما جرى لعبّاس هو مركز كل حديثي هنا، ولذلك يمكن تمرير كل شيء، الكلمات الرسمية لوزير المالية والاقتصاد، وكلمة القطاع المالي الخاص، وكلمة ممثل السلطة التشريعية، وكلمة السفراء والقناصل الأجانب وغيرها، وصولا إلى كلمة رئيس مجلس الإدارة.

كرّس الرجل القصير النحيف الأصلع المتحدر من عائلة مؤسسي المصرف خطابه القصير للتذكير بأدوار المصرف الوطنية، واستحضار المؤسسين الراحلين، وتذكير جميع الحاضرين بأسباب كون المصرف الأول في البلاد وأحد الاوائل في المنطقة كلها، لم يفوت المناسبة ووجود الحضور الرسمي لتذكير الجميع أنهم مدينون لهذه المؤسسة المصرفية الأولى.

حين بدأت نبرته توحي بأنه شارف على نهاية كلمته أعلن افتتاح فروع في عواصم كثيرة حول العالم، وعن إطلاق مؤسسة ثقافية رائدة، وجمعية خيرية تضاف إلى سلسلة الجمعيات التي يرعاها المصرف، وأعلن عن تكريمات خاصة ومكافآت تصل أصحابها وصاحباتها خلال أيام، وأنهى كلمته بتحيات حارة لكل العاملات والعاملين في المصرف في كل فروعه في شتى بقاع الأرض، وقال إن المصرف يذكر فضلهم واحدا واحدا، وإن عائلة المصرف الوطني تكبر بهم ولا يمكن لها أن تحقق شيئا لولا إسهامهم الفردي البسيط، وأعلن قبل تحية الحضور أن العام المقبل سيكون عام «عائلة المصرف الوطني»، من جعلوا كل هذا ممكنا.

لا بد من التروي هنا وتبطئ الحركة لتوضيح ما جرى بالضبط حين دب التصفيق الحار مباشرة مع طي رئيس مجلس الإدارة الملف بين يديه منهيا كلمته.

حين بدأ رئيس مجلس الإدارة بالالتفاف صوب درجات المنصة الثلاث، كان مدير المصرف قد صعد الدرجات ووضع يده بيد رئيس مجلس الإدارة ليسلّم عليه ويهز ذراعه كأنه يهنئه على هذا الخطاب العظيم، وظل يتمتم قريبا من رأس العجوز الذي يبحث عن الدرجات ليخرج من مشهد المنصة.

في تلك الثواني القليلة وضع رئيس مجلس الإدارة الملف الحاوي للخطاب بيد مدير المصرف في محاولة منه للتخلص منه وإنهاء الأمر، فالتقط المدير الملف وسار منحني الظهر والرأس إلى جانب رئيس مجلس الإدارة كأنه يمهّد له الطريق صوب طاولته القريبة، وظل يقبض يده ويشرعها كأنه يفتح أبوابا أمام رئيس مجلس الإدارة، ويزداد اقترابا منه كأنه يريد أن يظهر أمام الجميع كمقرب لصيق. ولم ينته المشهد الثقيل إلا بجلوس رئيس مجلس الإدارة على كرسيه بجانب زوجته التي تبدو وكأنها ابنته، وإشاحته بوجهه عن مدير المصرف كأنه يطلب منه الانصراف.

في تلك اللحظة تماما نظر مدير المصرف إلى المنصة فرأى الفرقة الموسيقية تصعد إليها بهمّة ونشاط لعزف وصلة طويلة حتى نهاية العشاء والحفل، ومع إجالة نظره على المنصة كلها تنبّه إلى أن المايكروفون الرئيسي لا يزال في مكانه متوسطا المنصة بعد أن فرغ رئيس مجلس الإدارة من كلمته.

تطاول مدير المصرف على مقدمة حذائه ينظر صوب مكان وقوف عبّاس، فرآه هناك لم يغادر موضعه منذ بدء الحفل منتظرا المهمة العظيمة التي شرحها له المدير عشرات المرات وبتوصيات مسهبة كأن عبّاسا بحاجة للكثير من الإرشاد والتلقين والفهم حتى يؤدي ما عليه.

كان عبّاس ينظر هو أيضا صوب المدير، فرفع المدير حاجبيه وأشار بيده صوب المايكروفون كأنه يرسل رمزا سريا إلى عبّاس، مع تحريك شفتيه بانفعال ودون صوت كأنه يقول كلمة «المايكروفون.. المايكروفون». وسريعا فهم عبّاس الأمر.

هرول عبّاس صوب المنصة ورأسه محني ينظر إلى مواضع خطواته، ومشى على المنصة متحاشيا النظر إلى أي شيء قد يربكه حتى وصل إلى المايكروفون، فحمله بيد وحمل حامله باليد الأخرى، وحاول الإياب إلى حيث كان يقف بكل الهدوء الممكن، وعند بلوغه النقطة التي انطلق منها نظر صوب المدير علّه ينال نظرة شكر أو إشادة أو أي شيء، فلم يجده. قبض على المايكروفون وفتح الباب الخلفي بقوة وخرج من القاعة ومجال النظر.

لم يكن الباب الصغير منفذا إلى خارج القاعة، بل مجرد غرفة انتظار صغيرة متصلة بممر طويل يلتف على القاعة ليتحد مع مدخلها الرئيس، والغرفة التي دخل إليها عبّاس أقرب ما تكون إلى كواليس مسرح.

حين استقر عبّاس في الغرفة هدأ الحضور جميعهم وحل صمت يفصح عن بدء الحشد الكبير بتناول الطعام، وتحضّر الجوقة لبدء

العزف، صمت لبرهات قصيرة غير متوقعة مقارنة بالضجيج الذي لم يفارق القاعة الهائلة.

في لحظات الهدوء تلك، انطلقت مكبرات الصوت والسماعات بحديث غير مفهوم ولا معلوم المصدر، جملة ثم جملتان وبدأ الكلام يتضح وساهم انشداه الحضور وصمتهم المطبق في توضيحه. وبدأ إدراك ما يجري ينتشر ببطء بين الحشود.

كان الصوت صوت عبّاس، كان هو المتكلم من الغرفة الصغيرة، وكانت نوبة غضب وانفعال مكتومة منذ أشهر خرجت في اللحظة الخاطئة.

لو أن أحدا حرّك زر المايكروفون مسافة الربع سنتمتر تلك لما حدث ما حدث، ولو أن أحدا غير عبّاس أبعد المايكروفون لما حدث ما حدث، ولو أن المايكروفون بقي على المنصة لما حدث ما حدث، ولو أن عبّاسا لا يعاني منذ أسابيع من نوبات توتر واضطراب وعُصاب لما حدث ما حدث.

مع الثانية الخامسة أدرك الجميع أن أحدهم يمسك المايكروفون المفتوح دون أن يدري، ويتبرم ويشكو ويصيح. هيفاء أدركت من الثانية الأولى ما يجري، وعرفت أنه عبّاس وأنه هناك في الغرفة يقول كل ما يخطر بباله دون أن يوقفه شيء، فلا هو يسمع مكبرات الصوت، ولا هو يرى انفعالات الحضور على وقع كلامه.

انفجر عبّاس ببساطة، أخرج كل ما ركد في صدره، قال كل شيء كأنه يتخلص من عقدة علقت في حلقه لسنوات طوال، انتقم

من كل سكوت وخنوع وانحناءات وصبر وتحمل وقهر. شتم مدير المصرف بثلاث شتائم سوقية ما كان أحد يتخيل أن عبّاسا يعرفها، وقلّد باستهزاء بالغ الجزء الأخير من خطاب رئيس مجلس الإدارة، مكررا عبارة «عام عائلة المصرف الوطني». صرخ كأنه يخاطب أحدهم مذكرا بأنه يعرف المصرف أكثر من الجميع ولم يخلف موعده معه يوما، ولم يتغيّب يوما لا من مرض ولا خطر ولا مطر، وأنه خدم المصرف أكثر من أي شخص آخر، واليوم يريدون الاستغناء عنه وإلقاءه في البيت! بدأت نبرته تتحول لصراخ بائس ينذر ببكاء وهو يقول إنه منذ شهر ونصف لم يفعل شيئا، يجلس في المطبخ حتى انتهاء الدوام.

تسع عشرة ثانية كانت المدة التي استغرقها صوت عبّاس محتلا فضاء القاعة وآذان الحشود المدعوة، تسع عشرة ثانية طويلة رصّ فيها عبّاس الكلام كله، تسع عشرة ثانية كان يمكن أن تمتد وتتطاول أكثر لولا هيفاء.

36

كان تحرك هيفاء سريعا وحازما كأنها خططت له، غادرت طاولتها سريعا وركضت لأول مرة منذ سنوات، فتحت باب الغرفة، ولم تنظر في عيني عبّاس بل انتزعت منه المايكروفون وأدارت له ظهرها وبدأت بالحديث، مستميتة في التقاط أنفاسها وافتعال نبرة محايدة غير متوترة. بدأت هيفاء تخاطب الحضور وهي تفتح باب الغرفة وتسير ببطء صوب المنصة حيث الفرقة الموسيقية مشدوهة ككل من في القاعة.

قالت هيفاء كلاما كثيرا بصوتها الذي يعرفه الجميع، ولكن بطريقة غير معهودة، كأنها أفصحت عن جانب مخبأ منه، وجه أجمل بكثير مما سمعه الناس في الإذاعة وفي اتصالات المصرف، قالت كلاما عن علاقتها بالمصرف والعمل فيه وعن اعتزازها بكل يوم قضته تتلقى الاتصالات، اخترعت قصصا حميمة سريعة التأليف عن أيام العمل الطويلة التي يتبدد تعبها وهي ترى ابتسامة عرفان من مدرائها وزملائها وزميلاتها، أخبرت الحضور أن المصرف أنقذها من حياة بائسة، أن قدرها تغير خلف مكاتبه، وأنها لولا

المصرف لما فعلت شيئا في حياتها العابرة. كذبت هيفاء كثيرا حينها، كذبات جميلة وبلغة حميمة دافئة، وقبل كل ذلك، بصوتها الذي يسكن له كل سمع ويرتخي حياله كل قلب ويشرد معه كل ذهن.

حاولت هيفاء جاهدة أن تمحو بصوتها وكلماتها ما سقط في آذان الحضور من قهر عبّاس، حاولت بجهد وانشغل الناس بها، وأغلب الظن أن طريقتها التي أوحت للحضور بأنها تكشف سرا، قد أزالت كل أثر لثواني عبّاس.

كانت تنقذه مما فعل، استخدمت الربع سنتمتر ذاته لتنسي الناس ما قال، تحدثت لأكثر من سبع عشرة دقيقة، مدة طويلة في عرف الإذاعة، خاطفة في عرف الكلام العادي ومجاملات العشاء الباذخ.

تعلق الناس بالصوت، ظنوا أنها مفاجأة الحفل، المصرف بعيني وصوت شاغلة المدينة كلها، تطاولوا في مقاعدهم وتركوا عشاءهم يبرد، وحاول كثيرون منهم التقاط الصور وتسجيل مقاطع الفيديو، وانقسمت القاعة الضخمة إلى فريقين، هيفاء في جهة والجميع في الأخرى، تقول ويسمعون، وتصمت ليصفقوا بانفعال بالغ.

حين رصدت هيفاء في أعين الحضور أثر ما فعلت، قرّبت نهاية حديثها، وأقفلته إقفالا بليغا، فانطلقت الموسيقى إثر حركة من يد هيفاء للفرقة على المنصة، ثم انسحبت على وقع التصفيق صوب الباب الصغير والهلع يملأها من خيانة ممكنة لأعضائها المستنزفة.

دخلت الغرفة وأغلقت الباب وتنهدت كأنها تصرخ، لم يكن عبّاس هناك. كان حينها يدخل منزله، وكل ما يعرفه أن المصيبة نزلت.

ما فعلته هيفاء أمام الحضور كان الجزء الأول من محاولتها إنقاذ عبّاس، كان إنقاذا أوليا للمنكوب الذي تمنى لو أن الغرفة اختفت من الوجود أو انفتح بابها على هوة سحيقة ابتلعته فاختفى كأنه لم يوجد قط.

فكّرت هيفاء ببقية خطة الإنقاذ وهي تنفذ الجزء الأول منها مخاطبة الحضور تحت دائرة ضوء مضاعفة. وحاولت تحاشي التفكير في الأعداد الهائلة التي ستهرع إليها بعد انتهاء هذا الكابوس لتتحقق من كون التي أمسكت بالمايكروفون وصعدت المنصة هي فعلا صاحبة «هاتف عمومي».

بعد انتهاء الحفل وانسحاب الحضور بعد أن قضوا كل مآربهم من العشاء الذي لا ينسى، التقت خطى هيفاء بخطى مدير المصرف، كان غاضبا ويخاطب أحد مساعديه بشتائم وتهديدات تطال «المجنون» عبّاسا كما قال، وحين التقت عيناه بهيفاء، انحنى بجسده وحرك يده وحاجبيه كأنه يشكرها على ما فعلت.

37

اعتذرتْ هيفاء عن لقائي في ذلك المساء، اتصلتْ هي وقالتْ إنها مشغولة جدا ولن تكون في المنزل في موعد لقائنا اليومي.

ما حصل في اليوم التالي عرفته بطريقتي.

بمجرد وصول المدير إلى المصرف صعدتْ معه إلى مكتبه، وأغلب الظن أنها سألته عما ينوي فعله حيال عبّاس، وإن كان ما يقوله الزملاء عن طرده صحيحا.

أخبرها المدير أنه يفكر بتعويضه وإقالته من وظيفته، فهو لا يستحقها بعد ما فعل، وهي لا تدري حجم التبعات الجسيمة التي ستنزل عليه بسبب ما فعل عباس، وقال لها أيضا إن المصرف لم يعد بحاجة لخدمات عبّاس أصلا.

أغلب الظن أن هيفاء قالت للمدير بوضوح وبعبارات قليلة إن إقالته لعبّاس مرفوضة، وإن أصرت إدارة المصرف عليها فستستقيل هي وتعمل في استقبال اتصالات زبائن مصرف آخر منافس.

وأغلب الظن أيضا أن مدير المصرف طلب منها الهدوء والتروي، وفكر سريعا في أن منطق العطف على عبّاس يمكن أن يتسع ليشمل خطأه الوحيد في حياته المهنية. عمليا كل التنازلات كانت واردة إن كان مقابلها بقاء هيفاء لتجيب على اتصالات عملاء المصرف عبر خطها الماسي. وبقي المدير يسهب في عرض انجازاتها على أنها انجازاته في اجتماعاته مع كل من يرقدون فوقه في السلم الوظيفي.

هذا نصف ما حدث يومها.

النصف الثاني كان اتصال هيفاء بعبّاس ودعوته للقدوم إلى المصرف سريعا، وإقناعه بذلك عبر سلسلة رجاءات واستجداءات، والتشديد على أن ما نقله له بعض زملائه عن تحذير المدير له من القدوم إلى المصرف ليس من حق المدير، ولا بد أن يحضر عبّاس لفحص الموقف مع دائرة الموارد البشرية ومحامي المصرف.

لا أحد يدري كيف اعتقدت هيفاء أن كل ذاك الهراء المهني والقانوني سيفلح في إقناع عبّاس بالقدوم للمصرف، ربما لم يكن قدوم عبّاس مهرولا للمصرف إلا هربا من جحيم يوم غير متوقع يقضيه في البيت، تاركا أمتاره الست والثمانين مباحة للمراجعين والعملاء وعلاقتهم الصماء بتلك الآلة، أو هو الأمل بأي خلاص ممكن، أو هو صوت هيفاء عبر الهاتف بكل ما يمكن أن يفعله برجل محطم.

أغلب الظن أن هيفاء انتظرت عبّاسا عند مدخل المصرف، وما أن وصل حتى أمسكت بيده وجذبته نحو غرفتها الصغيرة حيث تتلقى اتصالات العملاء والمستفسرين. ثم أغلقت الباب حاشرة عبّاسا معها وقالت له كلاما مختصرا مفاده أنهم ينوون طرده من

المصرف ولا يجدون له مكانا هنا، وسيستغلون ما حصل أمس لتنفيذ قرارهم المبيَّت.

وحين رأت على وجهه كل ملامح التداعي والانهيار، قالت له إنها لن تسمح بذلك وستقرن مصيرها بمصيره مهما كلف ذلك من ثمن، وستظل في المصرف إن بقي هو وسترحل إن رحل، ولن تسمح لأحد بالتضييق عليه أو إنهاء عمله. وربما أمسكت هيفاء يديه بيديها وضغطت عليهما.

حينها وقبل أن يظهر أي أثر لاطمئنان أو تماسك على وجه عبّاس، همست هيفاء بصوتها الذي سمعه عبّاس لأول مرة موجها إليه، وقالت إنها تريد أن يتزوجها.

لحظتان ... ثم هزّ عبّاس رأسه موافقا.

...

لا أدري، ولا أظن أن أحدا يدري، أي النصفين حصل أولا، مقابلة هيفاء للمدير أم مقابلتها لعبّاس في ذاك اليوم. إلا أن النتيجة أصبحت واحدة.

38

هل يمكنني إنكار أنني فكرت طويلا برد فعل هيفاء حين تقرأ كل هذا الكلام؟ هل كنت غير عابئة بها وبرأيها؟ هل أسقطتها من حساباتي حين قلت كل هذا؟ بالتأكيد لا، ولكن أي تساؤل خطر في بالي وأي قلق وشك لم يكن ليمنعني من قول كل شيء، بل كان يدخلني في نوبات تفكير وانقطاع ثم أواصل ما بدأتُ به.

كيف سيكون أثر كل هذا عليها؟ هل ستتصل بي وتصرخ أم تضحك أم ماذا؟ هل ستتصل أصلا؟ أم أنها ستطوي الصفحة وتتظاهر بأن شيئا لم يحدث، أو تقطع أي صلة بي ولكن بهدوء على طريقتها؟

لا يمكنني بأي شكل تجاهل كل هذه الأسئلة وربما حددتْ كثيرا مما أقول.

هل ستخسر هيفاء حين أختفي من حياتها شيئا؟ لا أدري، لقد وضعتني في خانة غريبة، لا أنا قريبة فأطمئن ولا بعيدة فلا أبالي، ولكنني بالتأكيد كنت الأقرب.

هنالك جزء من الأمر متصل بهيفاء كفرد مستقل وحالة خاصة، ولكن في هيفاء جزء يخصنا كلنا، يخصنا أقصد بها النساء والفتيات كلهن، ولأنه يخصنا فهو يخص الجميع بالتالي. وبالطبع في هيفاء أجزاء كثيرة تخصني أنا تحديدا.

كنت الأقرب إليها، كنت الصديقة الوحيدة، الصديقة الوحيدة التي تعرف كل شيء أو تظن أنها تعرف كل شيء.

لا أرغب أبدا في تذكر بداية هذه الصداقة غير المستوية، ولكن المقام يفرض طرحه بوضوح. كنت في مرحلة اضطراب، كأي فتاة تقارب ربع قرن من العمر، ياه... تبدو السنوات الخمس والعشرون الأولى الجميلة، طويلة جدا حين استخدمت هذا التعبير!

بالفعل كانت طويلة جدا وكنت في حال مزرية، كنت الأجمل بين كل من مررن بي، وهذا حكم صادق نسبيا، على الأقل كان من النادر تعثّري بمن هي أجمل مني. قد تدعي أي امرأة أنها أجمل وتسوق لذلك كل التفانيد والشواهد والبراهين، ولكنها في قرارتها يمكنها خلال ثوان معدودة تصنيف أي امرأة أخرى على سلم الجمال الكوني وبموضوعية مطلقة ولكن غير معلنة. كنت الأجمل، والأكثر شبابا وحياة واندفاعا، وكان هنالك رجل ما، أب أو أخ أو حبيب يدس في حقيبتي كل ما أحتاجه، كنت طفلة مدللة عاشت ربع قرن.

كان يمكن لأي امرأة أو فتاة تمر بقربي أن ترى هالة الدلال واليسر والمتعة التي أحيا بها، وكانت العارفات منهن يلتقطن خلف كل هذا وتحته نقصا فادحا، وحين نظرت هيفاء إليّ أول مرة كانت

كأنها تعرّيني من كل الامتيازات الثمينة التي أملك، كانت تنظر إلى النقص فيّ حتى كأنها أخرجته من داخلي ووضعته على الطاولة أمامنا كقطة صغيرة ميتة.

لولا اعتداد الأنثى لبكيت كطفلة مدللة، ولكنني حاولت -وهذا كان مقتلي- توجيه رد مناسب، فأخذت أحملق بجسد هيفاء وسحنتها، أنظر إليها كما تنظر النساء إلى النساء، تلك النظرات التي لا تشبه نظرات الرجال إلى النساء في شيء، نظرات امرأة تمس كل جزيء صغير في امرأة أخرى، نظرات إلى ما لا نراه إلا نحن لأننا نعرفه جيدا. كأن لعيني عشرات الأيدي ومئات السبابات تشير بكل سفور إلى ما أرى أنه نقص هيفاء الأهم.

ومع كل هذا بدوت كأنني لم أفعل شيئا، كانت باردة كقط كبير ميت على ظهر بناية مهجورة. هذا ربما ما جعلني أحرص عليها، ولكن دون تبيّن الدوافع الحقيقية لدي.

يمكن وضعي وهيفاء داخل مربعين وإطلاق أوسع لعبة للبحث عن الفوارق، كنت ما لم تكنه وكانت ما لم أكنه، وفي كل لحظة هنالك نقطة افتراق واختلاف تتكشّف بيننا، بدءا بوجود «رجل ما» يرعاني دوما، وصولا للهيئة والشكل، ومرورا بالفرص الحياتية المختلفة، كحصولي على تعليم جامعي متقدم، وتدافع الفرص الوظيفية في وجهي. حتى شهوتي العارمة لكل ما يندرج تحت مسمى «طعام» كانت بندا آخر في قائمة الاختلافات بيننا. ويمكن ببساطة لأي كان معرفة إحدانا بمجرد قلب كل صفات وظروف وحظوظ الأخرى. وقد يصلح أن يفترض أي كان أن

التقاءنا، أو «صداقتنا» -لا أدري إن كانت هيفاء توافق على هذه المفردة- مجرد تلاقي أضداد، لا أدري بالضبط ولكن الظروف والعوامل الموضوعية كانت حاضرة بقوة في لحظة التقائنا الأولى.

كأي فتاة في مرحلة اضطراب وفقدان أمل وانعدام جدوى، يمكن تفسير حالتي أنها تعلّق بمن هي أدنى منها شأنا، هذه لعبة أثيرة لدى النساء. فالصداقات العرجاء المتفاوتة هي التي تدوم. ربما هذه جملة متهورة، ولكنها صحيحة إلى حد بعيد.

ولكنني شعرت بالحاجة لهيفاء، شعرت بها لدي حين رأيتها وعرفت ما ينقصني، هل يحتاج الأمر لأكثر من هذا؟! لو وجدت هذا في رجل لما تركته يخطو خطوة واحدة ولتقلدته، أوه ... جميل هذا التعبير! تقلدته... يعني جعلتني قلادة في عنقه أو جعلته قلادة في عنقي، هكذا أخفف توتري، باستخدام تعابير أبلغ، أو غير عادية!

هيفاء أذكى من أن تنطلي عليها صداقة عرجاء، ولكنها ربما فكرت بالأمر بمنطق مغاير، أي أنها رأت العلاقة عرجاء من جانبها. هكذا تستقيم العلاقات العرجاء بين النساء، تظن كل واحدة منهن أن لديها ما ينقص الأخرى ويعلّقها بها، فتعيش الصداقة ربع قرن وأكثر، تعيش وتتغذى على الرغبة الأزلية لدينا نحن النساء بالاعتقاد أننا أفضل.

في علاقات تبغي الدوام والاستمرار بين أي اثنتين أو اثنين أو أي شيئين، لا بد من توازن دقيق بين ما يمنحه كل طرف وما يأخذه، والمنح يحوي كثيرا من الأخذ، تحديدا في تلك العلاقات التي تبدو وكأن أحد طرفيها يمنح والآخر محض آخذ، هنالك أخذ حتى في

المنح المطلق، هو أخذ متعة العطف والترفق ومساعدة الطرف الآخر ومساندته.

كنت أعرف جيدا ما آخذُ من هيفاء وما تعطيني، ولكنني لم أكن يوما متيقّنة مما تأخذ هيفاء مني وما أعطيها، كانت أمامي صفحة مفتوحة، صحيح أنها صامتة، ولكنها مفتوحة دون مواربة، تماما كما كانت تتمدد على أريكتها أمام التلفاز ولا تغيّر من حالها شيئا حين دخولي عليها مساء، تظل بكل ما انكشف وبدا من جسدها أمامي، بفجاجة جسدها الضخم ممتطيا أريكة متعبة، دون أي عناية في جعل المشهد أقل حدة، أو أكثر لياقة. مشرعة أمامي حتى كأنني غير موجودة. كنت أرى كل شيء وأتعلم منه وأراقبه، وأظلّ أتساءل أحيانا إن كانت تدرك أنها مادة هائلة لأسئلتي وأفكاري، بل عاملا فعالا يسهم في ترتيب اضطراباتي وتسوية توتراتي النفسية والاجتماعية.

ربما كان ما تأخذه مني هو الرضى عن حالها، فتلك التي تبدو أمامها مكتملة مكتفية تظل محتاجة إليها، محتاجة وبشدة للقاء يومي لا تقول فيه هيفاء إلا القليل، ربما كانت أحاديثي التي لا تنتهي إليها وهي تشاهد تلفازها الضخم تربّي فيها رضى وسعادة خفية، رضى عما لديها، على الرغم من كل النقص المفترض في حالتها، وسعادة بحاجتي الملحّة إليها، على الرغم من كل الاكتفاء المفترض في حالتي. ربما كنت شيئها المميز كما كانت شيئي المميز، والسريّ ربما.

...

حين دخل عبّاس حياتها من باب عريض، شعرت بشيء ما يدفعني للخروج من نافذة صغيرة في المطبخ، وكأن هذا الشيء الذي دفعني بقوة ولكن برفق، أمهلني قليلا من الوقت لأسوّي عرجا طويلا ظل بيننا، أنا وهيفاء، ولأسوي نتوءات سكتُّ عنها وعليها، وأمهلني الشيء ذاك قليلا حتى أترك لهيفاء تذكارا لا ينسى، وها أنا وبهذه الجملة أنتهي من كتابته.

هَاتف عمُومي

كان كل ما فيها يبكي، ولذلك تسرع إلى غرفتها حتى تصلها قبل اهتداء الدمع لعينيها، فتلقي بنفسها على ما سموه فراشا، وتبدأ بتحسس جسدها كله محاولة الإطباق عليه بكفيها لعلها تُسكتُ بكاءه. والعينان تسكبان كل ما يرد إليهما من ماء مالح. كانت تموج في فراشها وهي تتحسس جسدها وتحاول ضبط تنفسها المتفلت. لو أن أي عاملة من العاملات في المأوى وضعت أذنها على باب غرفة هيفاء لاستمعت إلى خليط أصوات عجيب. يعرف الناس صوت البكاء، ومع كل تنوعه واختلافه من إنسان إلى آخر، يظل صوتا معروفا وقابلا للإدراك، أما صوت مكابدة البكاء وكبته، فهو صوت غريب لا يتشابه فيه بشريان.

عبّاد يحيى

روائي من فلسطين، صدرت له رواية "رام الله الشقراء"، ورواية "القسم ١٤".

تصميم الغلاف كريم آدم

ISBN 978-9957-39-083-9

9 789957 390839

الأهلية

الأردن، عمان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص. ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2015